أعلام الثقافة التونسية 29

الطاهر الخميري
المثقف الأنثروبولوجي

الجمهورية التونسية
وزارة الشؤون الثقافية
المؤسسة الوطنية لتنمية المهرجانات
والتظاهرات الثقافية والفنية
منتدى الفكر التنويري التونسي

عنوان الكتاب **المثقف الأنثروبولوجي**

المؤلفون
* **محمد المي**
* **سليمة لوكام**
* **مراد الضويوي**
* **رشيد الزواوي**
* **عبد الجليل بوقرة**
* **فوزية المزي**
* **زهير الذوادي**
* **خديجة التومي**
* **أشواق عوي**

السلسلة أعلام الثقافة التونسية ـ عدد 29

ر.د.م.ك 978-9938-9689-1-0

عدد الصفحات: 108

إشراف وإعداد محمد الميّ
منتدى الفكر التنويري التونسي

الطبعة الأولى : 2023

الناشر **المؤسسة الوطنية لتنمية المهرجانات والتظاهرات الثقافية والفنية**

الدكتور الطاهر الخميري
المثقف الأنثروبولوجي

محمد المي

توفي الدكتور الطاهر الخميري في نفس اليوم والشهر والسنة التي توفي فيها عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين ولو طالعنا الصحف التونسية لنقف على حظّ الرجلين من المقالات التي كتبت عن كلاهما في الصحافة التونسية لأدركنا دون عناء أن ما استأثر به طه حسين المصري أكثر ممّا كتب عن التونسي الطاهر الخميري في بلاده ؟

رغم الخدمات التي قدّمها الدكتور الطاهر الخميري لتونس فانه عاش غريبا ومات غريبا ولم ينل من الإنصاف ماهو جدير به حيث أغلقت أبواب الجامعة التونسية في وجهه مثلما حصل للدكتور محمد فريد غازي ولولا الجرائد والإذاعة التي كان يسترزق منها لعاش بلا دخل مالي يحفظ كرامته .

كان اسمه يتردّد في أغلب الجراد والمجلات الصّادرة في عهده حيث كتب في : «العمل» و«الصباح» و«الندوة» و«الفكر» و«الخدّام واللغات» و«التجديد» و«الإذاعة» ...الخ فضلا عن

أحاديثه الإذاعية ومحاضراته التي كان يقدّمها في مختلف المناسبات ويمكن تقسيم اهتماماته إلى أربعة محاور كبرى :

* الثقافة الشعبية
* الترجمة من الأنقليزية إلى العربية
* المسائل اللغوية
* النقد الاجتماعي

وقد خلّف عدة كتب مطبوعة مقارنة بأعلام عصره وما هو متناثر في الصحف والمجلات يكوّن كتبا عديدة قد شرعنا في جمعها فأصدرنا بعضها بالتعاون مع دار سحر للنشر فضلا عن كتبه باللغتين الإنقليزية والألمانية - خاصّة أطروحته عن ابن خلدون - فإننا نرى في هذا المثقّف التونسي مثقفا استثنائيا بأتم معنى الكلمة خالف السّرب وخرج عن المألوف فأفرد إفراد البعير المعبّد واتهم عدّة اتهامات منهم من قال انه جاسوس انقليزي وقع تجنيده أو قام بعرض خدماته ولذلك نفهم اهتمامه بالجوانب الأنثروبولوجية على غرار العادات والتقاليد والاهتمام بنمط العيش ..الخ وقد فعل من قبله محمد بن عثمان الحشايشي صاحب كتاب العادات والتقاليد التونسية في نهايات القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

إذا صدّقنا هذه الدعاوى فهل نعتبر أحمد أمين الذي كتب معجم العادات والتقاليد التونسية جاسوسا ؟ وهل نعتبر محمود تيمور الذي اهتم بالأمثال العامية جاسوسا ؟ وها قد

عرفنا أن الصادق الرزقي اهتم بالأغاني التونسية وجمع الأمثال العامية ؟ فماذا يمكن أن نقول عنه ؟

خمسينية الدكتور الطاهر الخميري تدعونا إلى التفكير من جديد في هذا الرجل الظاهرة وتأمل منجزه من جديد وهذا دور هذه الذكريات التي نحييها من زمن إلى آخر لتجعلنا نفكّر في واقع ثقافتنا وما حصل لدينا منها .

محمد المي

منتدى الفكر التنويري التونسي

إسهام الأثروبولوجيا وهواجس التنوير في أعمال الطاهر الخميري

سليمة لوكام

تقديم:

من مرحلة الطفولة ما زلت أذكر مقولة للوالد – رحمه الله– ، وكان باديسيّ التّكوين تونسيّ الهوى، كان لمّا يستمع إلى الإذاعة التونسية أو يشاهد التلفزة التونسية يقول، «الطاهر الخميري وعبد العزيز العروي وعّاوا التوانسة»، وعلِق ذلك في ذهني لمّا كنت أتابع معه أحيانا مشاهدة بعض حكايات العروي على شاشة التلفزة، ولكن السؤال ظلّ يراودني، هذا هو العروي، فمن هو الخميري؟ ثمّ نسيته.

ثمّ في مرحلة أخرى، وفي غمرة البحث العلميّ، بحكم الاختصاص (السرديات والنقد المغاربي) طفا هذا الاسم أكثر من مرّة على السطح، لكنّني لم أتوقّف عنده كثيراً مدفوعة بفكرة براغماتيّة ، كان مجال البحث أولى.

و أُتيحت لي الفرصة لمّا أهداني الأستاذ محمد الصالح الرصّاع متفضلا مشكورا مجموعة أعمال الدكتور الطاهر

الخميري، فانكببت على قراءتها، وتقصّيت أنحاء النّظر في تجربة بدت لي خاصة بعض الشّيء باعتبار ثرائها المعرفي والثقافي والفكري، وتميّز سياقها - أو سياقاتها الاجتماعية والثقافية والسياسية- ، وبتنوّع مناحيها الأدبية الرّسمية والشعبية، وانفتاحها على الحداثة وعلى التراث على حدّ السّواء.

وقد آثرت في هذا الموضع أن أختار للدراسة متنا محدّد المجال نسبيّاً من مجموع الأعمال، فوضعت الترجمات جانباً، واتخذت من كتاب «مكافحة الثقافة» و« مرآة المجتمع» مدوّنة أروم من خلالها الوقوف على خصوصية الخطاب واستراتيجيات الكتابة عند الطاهر الخميري بوصفه مصلحاً تنويريّاً ومثقفاً عضويّاً بالمفهوم الغرامشي.

الإسهام الأنثروبولوجي:

أمّا الملمح الانثربولوجي الذي وسم جانباً من أعمال الخميري فحضر بقوّة في عمليه «قاموس العادات والتقاليد التونسيّة» و«مختارات من الأمثال العاميّة التونسيّة»، وهما يقعان على مسافة غير بعيدة من الأدب الشعبي، وبهما يُعدّ الخميري رائداً في هذا المجال بالنّظر إلى دقّة المرحلة التي ظهرا فيها، وغياب المحضن الأكاديمي الذي يمكن أن يحتوي مثل هذا التوجّه.

وحريّ بنا في هذا المقام أن نشير إلى أنّ ما دعا الخميري إلى سلوك هذا النهج في التعاطي مع ثقافة المجتمع يرتدّ فيما يبدو إلى احتكاكه المباشر بطبقات الشعب على تباين مشاربها، وتفاوت مستوياتها، واشتغاله بالصّحافة التي كانت بالنسبة إليه رافداً هامّاً ومحفّزاً ، وهو في ذلك لم يشذّ عمّا كان يتعاطاه أمثاله من رواد النّهضة والتنويريين في المشرق العربي من الكتاب والمثقفين الذين قال عنهم جرجي زيدان: «المشتغلون في الصحافة في هذه النّهضة كثيرون، إذ لم ينبغ أديب أو شاعر أو عالم أو مؤرّخ أو قانونيّ إلّا كتب في جريدة أو مجلّة.»[1] وأعمق من كلّ ذلك يقينه بأنّ ثقافة شعب ما لا تتجزّأ، وأنّه ليس من شيء أولى بالدّرس والتّمحيص في مرحلة ما بعد الكولونيالية التي كانت تمرّ بها المنطقة المغاربيّة من تثبيت الهويّة، والمحافظة على مقوّماتها، كاللغة سليمة بيّنة سواء أكانت رسميّة فصيحة أم عاميّة دارجة، وكالدّين صحيحا نقيّاً من الترهات والأباطيل، فالتفكير في قاموس العادات والتقاليد، والعناية بجمع الأمثال، وما تناقلته أفواه التونسيين من أقوال مأثورة ترتبط بكلّ مناشط حياتهم، وطرائق تفكيرهم.

وعلى الرّغم من الإعراض الذي لقيه الخميري بسبب تكلّس بعض الذّهنيّات فيما هو موصول بالثقافة الشعبيّة آنذاك، وفي ظلّ غياب منظومة ثقافيّة أكاديميّة تشجّع على مثل هذه الدّراسات، فإنّ ما قدّمه الباحث في هذا السياق يعدّ إسهاماً انثروبولوجيّاً مؤسِّسا، ومنجزاً كان له أثره البالغ في التعريف بالتّطورات التي طرأت على المجتمع التّونسيّ، وليس بخاف

على أحد ما توصّلت إليه عند الغربيين، الدّراسات الإنسانيّة الأنثروبولوجية التي لا تميّزُ ولا تُفاضل بين ما هو رسميّ وما هو شعبيّ في ثقافات شعوبها، و«يستطيع المتتبّع للحياة الثقافيّة عامّة ، وللدّراسات الإنسانيّة خاصّة أن يشهد عدّة تطوّرات لها أهمّيتها التي لا يمكن إغفالها، أو تجاهلها، فالذي لا شكّ فيه أنّ الثلاثين سنة الماضية قد شهدت تطوّرا مذهلاً في الدّراسات التي تتناول المجتمع بالوصف والتّحليل، وتحاول أن ترصد مظاهر الثّبات والتغيّر، والجمود والتطوّر، والاتّفاق والاختلاف، والإيجاب والسّلب في الظواهر الاجتماعيّة والثّقافية المختلفة.»[2]

ولن كانت هذه الجهود قد سبقت زمنها، ولم تتهيّأ لها شروط وجودها في حينها، ولم تنتظم ضمن رؤية علميّة منهجية، ولم تتأطّر داخل «عمل الفريق» الذي تقتضيه مثل هذه البحوث، فإنّ ما توصّل إليه الخميري كان كافياً لأن يمهّد السّبيل لمن جاء بعده، ويكسر حاجزاً سمح لمن بعده من المهتمّين الباحثين في تطوّر المجتمع، وآليات تشكّل بنياته الثقافية والاجتماعيّة بأن يخوض تجربة البحث بالاتّكاء على منجز جهد فرديّ كاد أن يلفّه التعتيم والنسيان.

مبادىء التّنوير:

في تقديمه الدقيق لكتاب «مرآة المجتمع» للطاهر الخميري، يرى «محمد المي» أنّه يذكّره بسلامة موسى فيما له علاقة «بتربية المجتمع وتوجيهه ومحاولة إصلاح بعض مظاهر عيشه

وكيفيّة إقامته على الأرض»، وهذا رأي له ما يبرّره تحديداً فيما له آصرة باشتغال الخميري بالصّحافة، وحرصه على إصلاح حال الشعب، وتعليمه، وإيقاظه، وتنبيهه إلى ما يمكن أن يعطّل عجلة تطوّره أو يعيق دورانها.

لكن في الحقيقة، إنّ ما عنّ لنا من خلال قراءة بعض المتون المشرقيّة أظهر قرباً للخميري من «طه حسين» أكثر من «سلامة موسى» ، ولا أرى أنه يشبه أحدا بقدر ما يشبه طه حسين في بعض أعماله (بين بين ، نقد وإصلاح ، من لغو الصيف، خصام ونقد، أحاديث، مرآة الضمير الحديث،...) التي عالج فيها مشكلات المجتمع وثقافته، والشعب وشؤونه، فكما هجس هذا بأحوال المصريين وطرائق عيشهم، وانتقد أساليب تفكيرهم في دقائقها وتفاصيلها، في نوع من الكتابة التي تمّ فيها استدعاء صنوف من الأدب والتاريخ والفكر والنادرة والخاطرة، مع الاستعانة في ذلك كله بثراء عدة معرفية ، وأدوات تحليل ونقد اجتهد طه حسين في تعقيلها، وأمعن في صياغة شعريّتها، وتشكيل جماليّتها على النّحو الذي يصيّرها لصيقة به، ملازمة له، ومباينة في الآن لما ارتضاه الخميري أسلوب كتابة، وسمتاً في بناء نصوصه، وإنّه من نافل القول أن نسهب فيما انعقد حوله إجماع النقاد والدّارسين عن خصائص الكتابة عند طه حسين، أمّا فيما يتعلّق بالخميري في هذا الجانب فسنفصّل الحديث فيها لاحقا.

وههنا ينبغي أن نشرع باباً وسيعاً ندلف من خلاله إلى معرفة المبادىء العامّة التي يتأسّس عليها الفكر التنويري عند الخميري، وتتقاطع إلى حدّ كبير مع تلك التي يتبنّاها «طه حسين»، وتبعده من ثمّ عن مسار «سلامة موسى» ومن انضوى معه تحت مظلّة واحدة. ومن أظهر ما استصفيناه من مبادىء:

ارتكاز الخميري على جانب الحداثة دون أن يناصب التراث العداء، فكما أنّه في الأعمّ الأغلب يضرب المثل بالنموذج الغربيّ في السلوك الحضاريّ، والوعي الاجتماعيّ والمستوى الثّقافيّ، فإنّنا نلفيه في كثير من المواضع مشدودا إلى مقومات الهويّة العربيّة الإسلاميّة، مدافعا عن اللغة العربيّة مصوّبا بعض استعمالاتها، وهو في هذا يتطلع إلى غرض أساسي واحد: إعادة إعطاء المدينة العربية – الإسلامية أصالة وحركية تتيحان لها أن تحتل بكرامة منزلتها في جوقة الأمم الحديثة». [3]

ومن ثمّ يختلف تماماً عن خطّ سير «سلامة موسى» وشبلي شميل» و«لطفي السيّد» من دعاة العلمانيّة والعقلانيّة المبشّرين بمبادىء الثورة الفرنسيّة .

- هدوء الخطاب التنويري الخميري، بالموازنة مع خطاب الليبرانيين المشارقة، ومنهم سلامة موسى الذي كان جريئا بل صداميّا في بث مشروعه التنويريّ حيث يقول: « هذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي سرّاً وجهرة، فأنا كافر بالشّرق، مؤمن بالغرب، وفي كلّ ما أكتب أحاول أن أغرس في ذهن القارئء تلك النزعات التي اتّسمت

بها أوربّا في العصر الحديث، وأن أجعل قرّائي يولّون وجوههم نحو الغرب، ويتنصّلون من الشّرق...»[4]

وفي المقابل، يطالعنا «الخميري» بنبرة فيها كثير من التعقّل والوعي بطبيعة المرحلة، وصلابة الأرض التي يقف عليها حتّى لا تزلّ به قدم، ولنضرب مثالا على ذلك ما ورد في مفتتح مقال «اللغة الفرنسيّة في تونس» ، وهو بالمناسبة مقال دقيق خطير على إيجازه، يقول: « هذه كلمة لابدّ لها من مقدّمة، وذلك اجتناباً لسوء التّفاهم.»[5] ، وفي هذا ما يشي بحرص الخميري على أن يُفهم خطابه على الوجه الصحيح دون أن يحدث ضبابيّة، أو يخلّف جدلاً.

وما يحسن الوقوف عنده في هذا الموضع تحديدا، هو أنّ هاجس التنوير في ذهن الخميري يعني تونس أوّلا وأخيراً. لم يكن الخميري، معنيّاً بالشرق أو بالغرب بقدر ما كان معنيّا بما في تونس، يعرضه مرّة على الشّرق، ومرّات على الغرب، لا بتعريض انتقاصيّ ولا باستعلاء تغريبي ، بل بحسّ وطنيّ عالٍ، وغيرة ظاهرة على أبنائه .

وإن كنّا لا نشكّك في ما كان يهدف إليه «سلامة موسى» من الرّغبة في نهضة الشّرق، ونهضة مصر ، بوجه خاصّ، فإنّ بعض الدارسين يرى أنّ اتهام «سلامة موسى بالسّطحيّة وعدم التّعمّق في التّحليل عند تناوله القضايا الفكريّة، ... يعود أساساً ، ... إلى اعتماده المقالة البسيطة والأسلوب البعيد عن التّعقيد، ذلك أنّ الأفكار التي كان ينشرها لم تكن سهلة الهضم آنذاك،

كما كان مبدأ ممارسته الفكريّة، يقول: « يجب رفع الشّعب إلى مستوى الأدب الرّفيع.» وعملا بهذا المبدأ اشتغل طوال حياته بالصّحافة ، بدأها سنة 1909 بالمقتطف، وتخلّى عنها سنة 1952 بالأخبار.» [6]

- يختار «الخميري» نماذج نقده وإصلاحه ممّا قرأ في الكتب والصّحف والمجلّات، وممّا عاشه من تجارب مع النّاس، من النّخب ، ومن العامّة، وممّا سمع من أخبار نقلها له بعض الأصدقاء والمعارف، فيحلّلها ويمحّصها، ويتّخذها تُكأة يشيّد عليها رؤيته في التوعية، بل في استنهاض الهمم، وإيقاظ الضمائر، وترشيد سلوكات الشعب، وهو في هذا يتقاطع إلى حدّ كبير مع «طه حسين» حدّ التطابق، فلو أخذنا على سبيل المثال لا الحصر، كتاب «بين بين» وما طرحه من مسائل تهمّ المصريين في تلك الآونة ، وما طرأ على حياتهم جرّاء التحولات الاجتماعية، والتيارات الثقافيّة، والأحداث السياسيّة، لتبيّناّ أنّ الموضوعات المطروحة فيه بعناوين من مثل: «الأدب والسياسة (جد وهزل)»، و«عيد» و« طيف» و«الضمائر القلقة» و«في الذّوق» و«خوف» و«النفوس القلقة» و«شياطين الإنس والجنّ» و«جوع وأحاديث»... تقترب في كثير مع ما طرحه «الطّاهر الخميري» في أحاديثه ومقالاته.

يقول طه حسين في مقال بعنوان «خوف»: «لست أدري أين قرأت، بل لعلّي أعلم أنّي قرأت في فصل طويل أراد به صاحبه تعريف مصر إلى أعضاء المؤتمر البرلماني الدولي...»[7] وفي « الضمائر القلقة» يقول: « يظهر أنّ في الضمير المصري شيئا من قلق يحتاج أن يعنى بها الذين يهمهم أن يكون الضمير المصري راضيا مطمئنّا وآمنا ومستريحا.»[7] وفي «جوع وأحاديث» يقول: « لا يغضب المواطنون الأعزّاء أن نشقّ عليهم في القول، ونعنّف بهم في الحديث. فقد يجب أن يُقال الحقّ، وإن لم يبلغ من نفوسهم موضع الرّضى.» [9]

و نكاد نقع على ما يشبه هذا وأكثر عند الخميري في كتابه «مرآة المجتمع» الذي ضمّ بين دفتيه عناوين من مثل: « المشية والخلق» و« توضيح فكرة» والاستقلال الاقتصادي» و« بمناسبة المولد» و« النساء في الأسواق» و« مجهودات ضائعة» وقليل من السياسة»، وعرّج فيها على الواقع التونسي، ونبّه إلى مواطن الضعف فيه، وحذّر من مكامن الخلل التي تكاد تعصف بمقدّراته، وتنسف بنياته الاجتماعية والثقافية والإنسانيّة، مؤكّدا صدوره عن رغبة جامحة وأمل طافح في أن تنصلح أحوال الوطن بالنقد والتصويب، ويستقيم أمر شعبه تقدّماً وازدهاراً، لذلك نجده في مقدّمة الكتاب يوضّح بشكل بيّن وصارم أنّه : « في مرآة المجتمع» هذه، لا أكتب بلغة (أنا) و(أنتم) أو بلغة (نحن) و(أنتم)، وإنّما أكتب بلغة (نحن) فقط. هذا الوطن هو بيتنا الأكبر، ونحن مثقّفون على أنّه بحاجة شديدة إلى التنظيم والتّنظيف، فيجب أن نتعاون على تنظيفه وتنظيمه.»[10]

والتدبّر في دلالات هذه الرؤية يصيّر أمر اختلاف الخميري عن سلامة موسى وطه حسين وغيرهما من الإصلاحيين والتنويريين المشارقة فارقاً وجوهريّا، ويتمثّل في ذلك الوعي بمهمّة المثقف من منظور تشاركيّ لا من زاوية نخبويّة، وهو هنا يقترب ممّا اقترحه «علي حرب» في سياق آخر (من ضمن ما اقترحه لاستدراك ما فات، ولاستباق الزمن وفتح آفاق المستقبل) من ّ «كسر عقلية النخبة والانتقال إلى المجتمع التداولي حيث كل الناس هم فاعلون ومشاركون في أعمال البناء والإنماء، كلّ في موقعه وبأدوات اختصاصه وإبداعاته في مجال عمله.»[11]

- اتخاذ الخميري الآخر مثالا للتّحضّر خليقاً بأن يُقتدى به، ونموذجا للمدنيّة ينبغي أن يُحتذى، ولم يكن له بدّ من ذلك، فليس لمن عاش في الغرب آنذاك، ورأى عن كثب ما ينعم به القوم من راحة، وما يجدونه من رغد العيش، ليس بسبب تطوّر علومهم، وضخامة عمرانهم، وصدق ساساتهم وقادتهم، بل بوعيهم بذواتهم، وبالتزامهم بقواعد الأخلاق التي تواضعوا عليها، واعتقادهم الجازم بأنّ القوانين التي تحكمهم تسري عليهم بوصفهم مواطنين كاملي الحقوق.

و قد يُقرأ هذا النمط من التفكير على أنّه نوع من الاستلاب، على اعتبار أنّنا حين نعجب بالمثال الغربيّ فنحن بالتّأكيد «نفتّش رغم ذلك على أنفسنا في مرآة الغرب المتصدّعة،

ونبحث عن حداثة شبيهة بحداثة الغرب، وعن مدنيّة مماثلة للمدنيّة الغربيّة، ونضغط واقعنا وفق النّماذج الغربيّة تائهين عن أنفسنا ممّا أحدث ارتجاجا وردّة أكثر خطراً «[12] وأنّ السّعي إلى التقليد والمحاكاة بدافع المضاهاة والمماثلة، والواقع أنّ ما أنجزه الخميري لا يستقيم وهذا المنظور، وليس فيه ما يُقيم الدّليل على صحّته في الكتابين كليهما، فهو ، وإن كان قد أعلنها صراحة في مقدّمة كتاب مرآة المجتمع قائلاً: « سلْ الذين قضوا فصل الصيف الماضي في شمال فرنسا أو شمال ألمانيا، أو في أنقلترا وبقيّة شمال أوربّا، سلهم يُخبروك أنّهم رأوا هناك حياة أفضل وأجمل، ثمّ ابحث عن السبب تجد أنّ هؤلاء كتبوا كثيرا في انتقاد أنفسهم، وانتقاد بعضهم البعض، فتعلّموا كيف يضحكون على ما فيهم من ألوان الضعف البشريّ وتمكّنوا من التغلّب عليها، أعرف عشرات من كتب وضعها الألمان في محاسن الأنجليز...و أعرف فهارس مطوّلة تحتوي على ما كتبه الألمان...»[13]

فإنّ ذلك لا يعني أنّ الخميري أُثنى على أوربا، وأشِاد بجمالها هياماً فيها، وفناء في أوطانها، وإنّما ليعلّم أبناء بلده فضيلة نقد الذّات، وأثرها في توعية الشعوب بواقعها، وإدراكها لمقدراتها.

و مثل ذلك عندما نبّه إلى خطورة ما سمّاه هو «قتل القيم» في كتابه « مكافحة الثقافة» حينما عقد مقارنة بين ما فعله الأنجليز مع شكسبير الذين أكثروا من الكتابة عنه حتى سئمه النّاس،

وبين ما يمكن أن يفعله التونسيون مع أبي القاسم الشابي، وهو إذ يفعل ذلك، فإنّه ينشىء خطاب مشابهة بين الطرفين، وينتقد ليبني لا لينتقص أو يشهّر ليخلص في آخر المقال إلى القول: « هذه هي نقائصنا، وهي – بالنّسبة إلينا– من نقص القادرين على التّمام.»[14]

وفي موضع آخر، يشرعن «الخميري» فكرة استعارة النظام الإداري الفرنسيّ، وينعته بكونه « ذلك الجهاز القويّ الدقيق المحكم» ويبرّر بكون تونس لم تخرج عن سرب الشعوب الأخرى لمّا استعارت ذلك النظام الإداري، فيقول: « أخذنا عن فرنسا الكثير من نظامها الإداري كما أخذ غيرنا من الشعوب المعاصرة، واستفدنا من ذلك كما استفادوا، إلّا أنّنا لم نحسن الأخذ دائماً.»[15]

و غاية ما نخلص إليه من تعاطي الخميري مع الغرب، ذلك الآخر الذي قضى زمنا غير قصير يعبّ من منابعه الثّرّة، ويتقلّب في محاضنه المعرفيّة والثقافية، ليعود بها إلى أبناء مجتمعه، يجوس في مساربه، ويتخلّل مغاوره مصلحا غيوراً، ومتنوّراً أثقل كاهله ما يعانيه شعبه من تخلّف، وما ينطوي عليه مجتمعه من مظاهر التفكّك والتدهور.

خاتمة:

لم يتّسع المقام في هذا الموضع لتفصيل القول في جوانب أخرى مثّلت علامات مضيئة في منجز «الخميري» خاصّة فيما

له بالأدب نسب صريح، وأو ما له بالصّحافة علاقة وثيقة، أو ما ربطته بالترجمة صلة وطيدة، لعلّ سانحة أخرى تتيح لنا إمكان الإفاضة في هذا الجانب أو ذاك.

وأيّا كان الشّأن، فإنّ ما قدّمه الخميري في مجالات الثقافة والسياسة والأدب والفكر خليق بأن يُثمن وما أسداه لمجتمعه من خدمات جليلة، وإرشادات قيّمة، وتصويبات ما زلنا إلى اليوم في حاجة إليها في تربية شبابنا، وتوعية نسائنا، وتوعية مثقفينا، بل إنّ كثيراً ممّا كتبه الرّجل ما زال بحاجة إلى أن يُتدارس، وتنشر عليه بقعة ضوء تُجلي الكثير من العتمة، وتنفتح على عديد الدّلالات.

الهوامش:

1- جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربيّة، ج4، موفم للنّشر، تقديم إبراهيم صحراوي، 1993، ص 439.

2- أحمد مرسي، الأدب الشّعبيّ وثقافة المجتمع، دار مصر المحروسة، القاهرة، 2008، ص 9.

3- .» محمد أركون، الفكر العربي، مع مقدمة من المؤلف خاصة بالطبعة العربية، تر د عادل العوّا، منشورات عويدات، لبنان- باريس، ط3، 1985، ص 150)

4- سلامة موسى، ماهي النّهضة ومختارات أخرى، موفم للنشر، 2000، الجزائر، ص 11- 12.

5- الدكتور الطاهر الخميري، مكافحة الثقافة، جمع وتقديم: محمّد المي، سلسلة كتاب الشهر رقم 62، دار سحر للنشر، تونس، 2023، ص27.

6- مصطفى ماضي، تقديم كتاب «ماهي النّهضة لسلامة موسى، موفم للنشر، 2000، الجزائر، ص 15.

7- طه حسين ، بين بين، دار العلم للملايين، ط12،القاهرة، 1983،ص 89.

8- طه حسين ، بين بين، ص 96.

9- المصدر نفسه، ص 142.

10- الطاهر الخميري، مرآة المجتمع، جمع وتقديم: محمّد المي، سلسلة كتاب الضهر رقم 62، دار سحر للنشر، تونس، 2023، ص 11.

11- علي حرب، ثورات القوة الناعمة في العالم العربي، نحو تفكيك الدكتاتوريات والأصوليات، الدّار العربية للعلوم ناشرون، منشورات ضفاف، لبنان، 2011، ص 13.

12- محمّد الجبابلي، المقدّس وغربة الإنسان، الدّار التونسيّة للكتاب، تونس، 2012، ص 118.

13- الطاهر الخميري، مرآة المجتمع، ص 12.

14- الطاهر الخميري، مكافحة الثقافة، ص 48.

15- الطاهر الخميري، مرآة المجتمع، ص 97.

الدكتور الطّاهر الخميري أنتروبولوجيّا

مراد الضويوي

جامعة جندوبة

المعهد العالي للعلوم الإنسانيّة بجندوبة

لم يكن الخميري علَما من أعلام الجامعة التونسيّة شأنه في ذلك شأن أعلام كبار مثل الشاذلي بويحيى ومحمّد اليعلاوي ومحمّد مختار العبيدي ... وآخرين.

لقد لفظته الجامعة التونسيّة لفظ النواة بل أغلقت الأبواب دونه وفتحتها مشرعة على مصراعيها لآخرين ممّن هم دونه ولا يمارونه في تخصّصه العلمي الدّقيق.

لقد كانت أبحاثه من أوائل الأبحاث الّتي قدّمت في تخصّص يشغل الآن حيّزا مهمّا في البرامج العلميّة في مختلف الجامعات العالميّة نعني به علم: «الأنتروبولجيا الثقافيّة» .

لقد ولد الدكتور الطّاهر الخميري سنة 1899 بمدينة تونس ابتدأ تعليمه في كتّاب البنّاني ثمّ جامع الزّيتونة والخلدونيّة وأتم تعليمه في أنقلترا وتعليمه العالي في ألمانيا وحصل على شهادة الدكتوراه من جامعة هامبورغ الألمانيّة سنة 1936 وعلى إجازة

في تدريس الحيّة من الجامعة نفسها سنة 1937 م، درس من اللّغات العبريّة والسريانيّة واليونانيّة واللاتينيّة والفارسيّة والتركيّة والإنقليزيّة والألمانيّة وله من المؤلفات :

ـ زعماء الأدب العربي المعاصر طبع في لايبزيغ سنة 1930 بالإنقليزيّة

ـ مفهوم العصبيّة عند ابن خلدون في هامبورغ 1937 بالألمانيّة

ـ وقد حقّق له الباحث محمّد المي ستّة كتب نشرها تباعا في سلسلة كتاب الشّهر عن دار سحر للنشر :

ـ هاملت تعريب الدّكتور الطّاهر الخميري جمع وتقديم محمّد الميّ

ـ يوليوس قيصر

ـ عطيل

ـ مكافحة الثقافة

ـ قاموس العادات والتقاليد التونسيّة

ـ مرآة المجتمع [1]

(1) صدرت عن دار سحر للنشر سلسلة كتاب الشّهر عدد (58 + 60 + 61 + 62 + 63 + 64 + 65) نوفمبر 2022 / ماي 2023

1 -أنتروبولوجيا الثقافة:

أفرد الخميري في الثقافة كتابا وسمه بمكافحة الثقافة وتم نشره في شهر مارس 1957 هذا الكتاب صدر في شكل مقالات يوميّة كتبت بين سنتي 1954 و1955 في جريدة الصباح وجمع بينها موضوع الثقافة فما الذّي يعنيه مصطلح الثقافة فضلا عن مكافحة الثقافة عنده لقد رأى محقق هذا الكتاب عن حقّ أنّ الخميري « كان كمن يقاوم مدّا جديدا بدأ يستفحل في جسم مجتمع ناهض وتائق للتحرّر وهو بذلك كمن كان يدعو المثقّفين إلى الإطلال على ثقافة مختلفة وعدم التلبّس بالثقافة الفرنسيّة لغة وعادة وتقليدا» [1]، لقد عمد الدكتور الخميري في هذا الكتاب إلى تحديد علاقة الأدب بالحياة الاجتماعيّة وكيف يمكن للأدب أن يقوم بدور في بناء المجتمع الجديد مجتمع يتوق إلى التحرّر وبناء شخصيته ونحت كيانه على حدّ تعبير محمود المسعدي، لقد كثر استعمال كلمة «ثقافة» كما يقول الدكتور الطّاهر الخميري وكثر سوء استعمالها حتى ارتخت واتسعت فصارت تدلّ على أشياء كثيرة ولا تدلّ على شيء معيّن، خاصّة عندما يتعلّق الأمر بتوظيف سياسيّ أو إيديولوجيّ لهذا المصطلح على نحو ما نقرأ في إعلان نشر في إحدى الجرائد التونسيّة بتاريخ 22/ 03 / 1952، ودوّنته يقول الدكتور الخميري يومئذ لطرافة القالب الّذي وضع فيه، «**انعقد اجتماع رهيب تحت إشراف شعبة المكان الدستوريّة**

(1) محمّد الميّ مقدّمة كتاب « مكافحة الثقافة» ص 6.

ضمّ جميع طبقات الأهالي من تجّار ودستوريين وعملة وفلاحة ونقابيين» فعدّ الدستوريين طبقة من طبقات الأهالي لا تشمل التجار والعملة والفلاحين، والنقابيين كما عدّ المثقفين طبقة تختلف عن ممثلي المنظمات القوميّة الأطباء والمحامين والأدباء» [1]، لقد انخرط الخميري في الشأن العامّ شأنه في ذلك شأن النخب المثقفة الّتي تعاملت مع الشّعب عبر الجرائد والإذاعة فلا يختلف خطاب الدكتور الخميري عن خطب الزّعيم الحبيب بورقيبة «توجيهات السيّد الرّئيس» أو حكايات عبد العزيز العروي الّتي تحوّلت إلى سلطة اجتماعيّة مثلما لا يختلف كتاباته عن جيل الاستقلال، لقد نشر الدكتور الخميري أبحاثه في سلسلة كتاب البعث الكتاب الشهري الأوّل في تونس شأنه في ذلك شأن أبي القاسم محمّد كرّو ومحمّد الحليوي ومحمّد العروسي المطوي ومحمّد مزالي، ومحمّد المرزوقي وعثمان الكعّاك وناجية ثامر... كانت هناك طبقة من المثقفين الجدد الأنتلجنسيا التونسيّة الجديدة الآخذة في التشكّل في تونس الحرّة المستقلّة اتّجذت من الصحافة المكتوبة والإذاعة من منبرا جديدا لحوار مباشر تصل به جسور التواصل مع جماهير الشّعب .إنّها ثقافة الجماهير أو الثقافة الشعبيّة مدخلا لفهم المجتمع وتحليل بنياته النفسيّة والاجتماعيّة والدّينيّة فئة من المثقفين الذّين آمنوا بالفعل الثقافي والسياسي والاجتماعي في مجتمع يعيش حراكا سياسيّا واجتماعيّا وثقافيّا مع صعود

(1) الطاهر الخميري مكافحة الثقافة ص 9.

حركات التحرّر العالمي في الأربعينيات والخمسينيات في القرن العشرين.

من هنا لم يستنكف الخميري من الاهتمام بالأدب الشّعبي والثقافة الشّعبيّة والعادات والتقاليد التونسيّة لأن الثقافة الشّعبيّة مرآة المجتمع ولعلّ هذا ما جعله يطلق هذه التسمية على عناوين كتبه [1]،ولهذا سيأخذ الدكتور الخميري منحى سوسيولوجيّا أو أنتروبولوجيا في محاولته لتعريف مصطلح الثقافة، مستشهدا بابن خلدون تارة وبرواد المدرسة الاجتماعيّة طورا آخر، خاصّة ذات التوجّه الأنقلوسكسوني، فالثقافة من منظور اجتماعي أنتروبولوجي هي « القيم الماديّة والاجتماعيّة لأيّ شعب سواء أكان متمدّنا أو متوحّشا، والثقافة هي أسلوب الحياة الخاصّ لشعب من الشّعوب وتتكوّن من مجموعتين من العناصر عناصر ماديّة كالصنائع والفنون وعناصر غير ماديّة كالعادات والمعتقدات، إنّه يمتاح من قاموس علم الاجتماع فيطلق مصطلح الثقافة على كلّ نماذج السلوك الاجتماعي ويشمل اللغة والصناعات والفنون والعلوم والقوانين ونظام الحكم والأخلاق والعادات والتقاليد والدّين والبناء والمواصلات والمؤسّسات، فالثقافة إذن بهذا المعنى هي أسلوب حياة المجتمع بصرف النّظر عن درجة الحضارة والتقدّم في العلوم فلكلّ شعب ثقافته الخاصّة وهي تتمثل في جانبها المادّي في الآلات والأدوات والسلاح واللباس وتتمثل

(1) انظر كتاب مرآة المجتمع ومكافحة الثقافة.

في جانبها غير المادي في القيم والمعتقدات [1]، الثقافة بالمعنى العلمي للكلمة هي كلّ المفاهيم والقيم الّتي يقول بها أعضاء مجتمع من المجتمعات فتؤثر في أنماط سلوكهم.

2 - أنتروبولوجيا العادات والتقاليد التونسيّة :

لم يكن قاموس العادات والتقاليد التونسيّة مجرّد قاموس معجميّ يحتوي مداخل معجميّة تعرّف لغة واصطلاحا تعريفا مشتقا من سياقه الثقافي والاجتماعي، بل إنّه قاموس في الأنتروبولوجيا الثقافيّة، تمتاح من سوسيولوجيا اللغة والدّين والتّاريخ والثقافة الشعبيّة ودونك شواهد عديدة مثل

تعريف الوحدات المعجميّة التّالية:

ـ **خبز**: يسمى الخبز نعمة ونعمة ربّي ويتأثم من أسقط فتاته على الأرض ووطئه بالأرجل وإذا وقع الخبز على الأرض فإنّه يرفع ويباس ويشرّف أي يقرّب من الشفتين ثمّ يرفع إلى الجبين وينهى الصّغار عن اللعب بالخبز ويخوفونه بالعبارة « اللي يلعب بالخبز ربي يحرقه بالنّار ... يقال عند الانفصال بين الزوجين وفات الخبزة ... والمريض الّذي يحسّ بقرب أجله خبزتي تعلّقت ...ومن الأمثال الواردة في الخبز : خبز السميد يردّ الخدّ حديد وخبز السوق ما ياكله كان البرّاني ... وخبز وماء والهناء ولا الدّويدة والبلاء ...»[2]

(1) انظر مزيدا من التفصيل فصل مكافحة الثقافة ص ص 11 + 17
(2) قاموس العادات والتقاليد التونسيّة ص ص 102/ 103

يتجاوز الأمر مجرّد رصف المفاهيم لوحدات معجميّة مشتقّة من الثقافة الشعبيّة إلى إحالتها على سياقها السوسيوأنتروبولوجي أي صورة الخبز في المخيال الشعبي وقس على ذلك مداخل معجميّة أخرى دينيّة واجتماعيّة وسياسيّة يمكن أن تكون مفتاحا لتحليل بنى المخيال الاجتماعي والدّيني والسياسي من ذلك المادّة المعجميّة « دار أجواد « هو بيت تسجن فيه المرأة الّتي تسيء معاشرة زوجها أو تستعصي على أبيها أو وليّها ويكون سجنها بأمر من القاضي الشرعي[1]

ـ خاتم الرحمان :عبارة يكنّى بها عن البكارة[2]

ـ **مدخل حنّ** : يعتقد أنّ الجنّ يسكنون تحت الأرض وفي ذلك يقال فوقنا ناس وتحتنا ناس إنّهم يخرجون في الظلام وإنّهم يأكلون ويشربون ويشتهون بعض أطعمة الإنس، لذلك يوضع لهم بعض من الأطعمة على عتبة باب المطبخ ويقال إنّهم يشتهون طعامنا وفيهم البكر واليتيمة والحبلى المتوحمة، إنّهم يساكنون الإنس في البيوت، ويشار إليهم بعبارات ممالي الدّار والناس الأخرى . ويعتقد أنّ بعض الجنّ يعشقون الجنس المقابل فيقال في الرّجل إنّه ملكاته جنيّة وهذا يمنعه من الزّواج ...[3]

(1) قاموس العادات والتقاليد التونسيّة ص 115
(2) قاموس العادات والتقاليد التونسيّة ص 101
(3) قاموس العادات والتقاليد التونسيّة ص 76

⇦ يتجاوز الأمر إذن مجرّد محاولة معجميّة لوضع قاموس للعادات والتقاليد التونسيّة فنحن إزاء دراسة سوسيولوجيّة للأمثال التونسيّة الواردة في هذا القاموس خاصّة بإحالتها على سياقها التاريخي والاجتماعي الّذي أنتجها واستنطاقها على لسان أصحابها في لغتهم العاميّة.

أو رؤية مثقّف أنقلوسكسوني تشبّع بالثقافة الأنجليزيّة نقد فيها التأثير السلبي للفرنسيّة على التونسيين وتغييب الهويّة الثقافية الوطنيّة والقوميّة والدّينيّة، فكان كمن يقاوم مدّا جديدا استفحل منذ الخمسينيات، إذ أنّ فرنسا قد خرجت جسدا ولم تخرج روحا .

من هنا كان كتابه «مكافحة الثقافة» رصدا لعلاقة الأدب بالحياة الاجتماعيّة وهموم الشّعب، فكيف يمكن للأدب أن يقوم بدور في بناء المجتمع الجديد؟، إنّه أدب جديد لا يراوغ ولا يكذب ولا يخذل ولا يخون، إنّه ينبع من هموم الشّعب بل إنّه ينطق على لسانهم يقول الخميري «**إلى القرّاء : جمعت هذه النّصوص من أفواه العديد من النّساء بمدينة تونس بين سنة 1953 و1962 فهل تعرفونها برواية أخرى أو تجدون فيها ما يحتاج إلى التصويب والتكميل، نرجو التفضّل بإرسال الجواب إلى قاموس العادات والتقاليد التونسيّة شارع باريس تونس**[1]»

إنّ وجود مثل هذه المعتقدات القديمة الّتي هي جزء لا يتجزّأ من الثقافة الشعبيّة ـ يقول الخميري ـ «**مع انتشار التعليم**

(1) مجلّة الإذاعة 16 أفريل 1962

يجعل فهم الحياة الدّينيّة في تونس اليوم صعبا ويجعل وصفها مضطربا غير دقيق الأمثال تدخل اليوم في حديث النّاس من مختلف الطّبقات بعضها يفهم على غير وجهه وبعضها يستعمل في غير موضعه وبعضها لا يراد به ما يدلّ عليه لفظه... وهي في جملتها تمثّل الشّعور الدّيني والقيم الدّينيّة عند عامّة الشّعب»[1]، هذا فيما يتعلّق بالمواد المعجميّة ذات الصّلة بالعادات والتقاليد الدّينيّة أمّا فيما يخصّ الأمثال المتعلّقة بالحياة الاجتماعيّة والفلكلور فيخصّها الخميري بتحليل سوسيولوجي عميق يربط الحياة الثقافيّة بمختلف الأشكال الفنيّة السّائدة في فترة زمنيّة مخصوصة على نحو ما نقرأ في المادّة المعجميّة : «رقص» [2]: ممّا لا مراء فيه أنّ الرّقص الفولكلوري التونسي استعاد مجده القديم عندما كان يعرف بالرّقص البدوي الشّعبي فبعدما كان رقصا على الطّبل والمزمار أصبح رقصا على الدّربكة وعلى المزود ثمّ ارتقى فأصبح رقصا على الكمنجة الّتي تحاكي المزود في نغماته وبعدما كان لا يظهر إلاّ في حفلات أعراس البدو أصبح لا تخلو منه حفلة عموميّة... ثمّ إنّ الرقص الفلكلوري من الألوان التونسيّة الصّميمة الّتي تقدّم للسواحين في حفلات خاصّة بالرّشيديّة أو بالحمامات أو بدار زرّوق في سيدي أبي سعيد[3]، ولا يقتصر الأمر على تعيين المداخل المعجميّة وتفسيرها وتحليلها

(1) قاموس العادات والتقاليد التونسيّة ص 124
(2) قاموس العادات والتقاليد التونسيّة ص 147
(3) قاموس العادات والتقاليد التونسيّة ص 147

وردّها إلى سياقها اللغويّ والاجتماعي بل يعدوها إلى الإحالة المرجعيّة والتوثيق العلمي الدّقيق:

ـ زعلقي بسكون الزّاي وفتح العين وتشديد اللاّم السّاكنة الشرّير الخبيث الفتّاك « **فدخل بعض الزعالقة من الغوغاء ... وولج على الحاجب رضوان في داره فقتله**»[1] .

نجد في اللهجة التونسيّة زعلقي وزعلوك وعزلوك كلّها صفات مستقبحة فكأنّها محرّفة عن صعلوك لشبهها بصفات «ذؤبان العرب» أي صعاليكها وفتّاكيها ومنه «زميم» بسكون الزّاي وكسر الميم مقدّم جماعة اللّصوص ومنه قصّة «الأربعين سارق وزميمهم» [2]

نحن إذن إزاء مشروع فكريّ متكامل كانت له دوافعه المعرفيّة والذاتيّة يرويها الخميري بنفسه «**في سنة 1955 دعيت إلى جامعة دجونز هوبكنز بواشنطن للمشاركة في مشروع دراسات عن شمال إفريقيا كنّا شرقيين ومستشرقين وكانت ترد في بعض النصوص الخاصّة بتونس ألفاظ عربيّة لا نجدها في القواميس العربيّة بمعناها المعروف في تونس... هناك شعرت بالحاجة إلى معجم للعاميّة التونسيّة وقاموس للعادات والتقاليد التونسيّة وبدأت بجمع المواد اللاّزمة لذلك**»[3].

ثمّ قام بنشرها تباعا في صحف تونسيّة وفي مجلّة الإذاعة خاصّة تحت عناوين :

---

(1) تاريخ ابن خلدون 4 375 بيروت 1958 + (قاموس العادات ص 161)
(2) قاموس العادات والتقاليد التونسيّة ص 164
(3) قاموس العادات والتقاليد التونسيّة ص 171

ـ أمثال وعبارات عاميّة تونسيّة

ـ شواهد معجم الألفاظ العاميّة في اللّهجة التونسيّة

ـ ألفاظ الحضارة في العاميّة التونسيّة

ـ فقه العاميّة التونسيّة

ـ المعرّب والدّخيل في العاميّة التونسيّة

وفي مجلّة الإذاعة :

ـ من قاموس العادات والتقاليد التونسيّة

حتّى اكتمل صرح هذا المشروع مع الباحث محمّد المي الّذي أقدم على جمع وتقديم وتحقيق كلّ أعماله بمناسبة الذّكرى الخمسين لوفاته تكريما له في ندوة علميّة دوليّة .

خاتمة:

من قاموس العادات والتقاليد التونسيّة إلى مرآة المجتمع إلى مكافحة الثقافة إلى ترجمة هاملت وعطيل ويوليوس قيصر إلى العربيّة الفصحى، كان هاجس الدكتور الطّاهر الخميري مكافحة ثقافة سائدة بائدة أنتجها الاستعمار على امتداد قرن من الزّمان وتواصلت بعد الاستقلال من خلال تشجيع الثقافة الفرنكفونيّة، وإنتاج ثقافة جديدة أشدّ التصاقا بهموم الشّعب، إنّها ثقافة الجماهير لا جمهوريّة الثقافة، فالثقافة بالمعنى العلمي للكلمة هي كلّ المفاهيم والقيم الّتي يقول بها أعضاء مجتمع من المجتمعات فتؤثر في أنماط سلوكهم.

جدل الثقافة بين الخصوصية والكونية في فكر الدكتور الطاهر الخميري:

في السردية التاريخية للهوية

رشيد الزواوي

I. الطاهر الخميري المفكر : السياقات التاريخية

II. الطاهر الخميري المترجم : جدل الثقافة والبناء العقلي

III. الطاهر الخميري المثقف : الثقافة والتثاقف : سرديات الهوية

IV. خاتمة :

مقدمة :

يثير هذا العنوان في تركيبه العديد من المحاذير والاسئلة وينطوي على جملة من الإشارات الإشكالية علينا البدء بالكشف عنها والبحث عن المدخل المناسب لالتقاطها فصياغة مقالة حول جدل الثقافة في فكر الطاهر الخميري ليست من المسلمات أو الموضعيات سهلة التعامل معها، وإنما

المهمة تقتضي دوما فهما مفهوميا لفكر الخميري والسياقيات التاريخية والظروف الموضوعية التي حفت بهذا الفكر.

لم يعد مريحا لأحد اليوم الاطمئنان لمفاهيم مثل الجدل أو الثقافة أو الهوية والتي مثلت في السابق محاور للنقاش وبحث عن حدودها، فهي في النهاية موضوعيات للنقاش في الأدبيات والفلسفات وعلم الاجتماع الخ ... فإن نكتب اليوم حول الطاهر الخميري هي محاولة لإحياء هذا الفكر والذي جمع بين الإبعاد الأكاديمية والثقافة الشعبية كتابة وترجمة وان تعددت الانتقادات لفكر الرجل من جهة سوء الفهم تعتبر في حد ذاتها اعترافا ضمنيا للقيمة العلمية للطاهر الخميري .

إنا مقاربتنا لفكر الطاهر الخميري هو اعتراف بالمكانة الفكرية والثقافية التي ساهمت في إرساء الهوية الوطنية وتكريس لمفهوم الخصوصية الثقافية .

I الطاهر الخميري المفكر : السياقات التاريخية

ما معنى أن تكون مفكرا ؟ وما هو نمط التفكير المناسب للسياق الثقافي والاجتماعي والسياسي للمجتمع ؟ هل يمكن للمفكر أن يجيب على الأسئلة الكبرى التي تطرحها الواقع الثقافي والاجتماعي للعصر ؟ وهل كل كتابة هي تعبير عن ثقافة وروح العصر ؟

هذه الأسئلة وغيرها من الأسئلة الحارقة تطرح اليوم على مفكري العصر فليس من السهل على المفكر أن يعرف سلفا

ماذا سيكون أو من سيكون لئن الكتابة تبقى تمرينا يوميا . ان الطاهر الخميري ليس كغيره من مفكري عصره لأنه لا يفكر وحيدا متفردا ثابتا في أشياء توقظ رغبته منعزلا هناك عن آلام شعبه، وإنما يعتبر من جيل أخذ على عاتقه مشاغل وهموم مجتمعه السياسي والثقافي والفكري .

يستحيل على المرء في شخص الخميري أن يخرج عن عصره إلا متوحدا متأملا ويتعذر عليه الابتعاد عن مجتمعه إلا مهاجرا مغتربا تائها في دروب لا يؤدي إلى أي مكان، لكن يستحيل عليه أيضا البقاء والاستمرار في تكرار نفسه .

في الحقيقة لا يمكن قراءة أثر الطاهر الخميري بمعزل عن جملة النصوص التي جمعها وقدمها الأستاذ محمد المي والصادرة عن دار سحر للنشر سلسلة كتاب الشهر بمناسبة خمسينية الدكتور الطاهر الخميري لسنة 2022/ 2023 (مرأة المجتمع / مكافحة الثقافة + هملت وغيرها من المؤثورات.

ما يمكن ملاحظته منذ البداية أن الفهم العميق لفكر الطاهر الخميري قد يتطلب منا قراءة دقيقة ومتأنية لجملة الإنتاج الفكري سواء كانت مقالات أو كتب أو منشورات وقد حذرنا بدءا الأستاذ محمد المي من ضرورة عدم اعتماد القراءات الاسقاطية يقول «إننا لا يمكن فهم هذا الكتاب (مرأة المجتمع) إذا أخرجناه من سياقه التاريخي الذي كتب ونشر فيه»[1] ونجد

(1) الطاهر الخميري : مرآة المجتمع، جمع وتقديم محمد المي، دار سحر للنشر، 2022 ص 5

نفس الصياغة في معرض تقديمه لكتاب « مكافحة الثقافة» إننا « لا نفهم خطورة هذا الكتاب إلا بوضعه في ظرفه ألزماني والنظر إليه بملابسات وظروف تلك المرحلة»[1]بمعنى أن الحكم المسبق على أعمال الطاهر الخميري بعيون معاصرة أو إسقاط الإحكام أو إعادة التصنيف قد تؤدي إلى سوء الفهم أو عدم الفهم. وعليه لا يمكن تصنيف هذه الكتابات علي أنها مجرد إنتاج ثقافي يدخل في دائرة المستهلك واليومي وإنما هي رؤية ثاقبة لانشغالات العصر يتنوع فيها النقد بجميع أبعاده سواء كان أدبي انتربولوجي اجتماعي عقدي وحتي السياسي. ليس من السهل علينا اليوم تصنيف الرجل على انه مجرد مفكر أو مثقف عضوي أو مترجم وإنما هو جماع هذا وذاكا قد جعل من فعل الكتابة تمرين يومي للتعبير عن انشغالات المجتمع ويعالج بها ثقافة أمة خرجت للتو من الاستعمار .

أن يكون الطاهر الخميري مفكرا معناه أن يكون قادرا على صياغة السؤال من خلال اللغة والازدحام المفاهيم المخصوص الذي يراه مناسبا لثقافة عصره وذهنية مجتمعه.

إن تجربة الطاهر الخميري من الفرادة بمكان من جهة تجربته على احتمال وجود آخر في علاقته المركبة بالإرث الثقافي الهووي وتجربته الفردية خارج حدود ذاته ووطنه وبلده

قد يبدوا لنا أن الطاهر الخميري الشخص والطاهر الخميري المفكر ليس واحدا من جهة اللغة والانتماء والهوية فأن يكون

(1) الطاهر الخميري : مكافحة الثقافة، نفس المربع ص 8

مفكرا هذا لا يعني أنه امتهن حرفته الكتابة وإنما هي قدرة على التحمل وجهد متواصل، أن يكون مفكرا معناه أن يكون بلا هوية فهو هويات متعددة حيث تنزلق هذه النفس المتعبة في أنفاس الآخرين.

كتب الطاهر الخميري في الثقافة والأدب والسياسة حاول من خلال أسلوبه اللغوي تأصيل معنى الخصوصية في الثقافة التونسية التي أصابها بعض التحير في زمنه وحاول الارتقاء باللغة ونمط العادات والتقاليد إلى الكونية . وهذا ما قد نلحظه في كتاباته من خلال (مرآة المجتمع، أو مكافحة الثقافة أو حتى قاموس العادات والتقاليد التونسية.)لم يكن الطاهر الخميري مثل مثقفي عصره من جهة الاهتمام حيث كتب في الثقافة والحياة الأدبية في اللغة والأدب في الفلكلور، كتب للإذاعة واخرج برامج إذاعية وتلفزية وترجم العديد من المسرحيات، هذا الحضور المتميز للرجل ليس كغيره من أدباء عصره مثل أبا القاسم محمد كرو أو الدكتور فريد غازي وان كانت أعمالهم وشحت نبض الحياة الاجتماعية والثقافية فإنها بقيت بلا روح، الطاهر الخميري بين الاهتمام بالحياة اليومية وإفرازاتها التعبيرية وجملة السلوكيات ورصد الاتجاهات الفكرية في البلاد النائية كتناوله النقد الأدبي في أمريكا والثقافة في الهند وتعليقه على ترجمة روزنتال لمقدمة ابن خلدون إلى الانقليزية مع الإشارة إلى مواطن الضعف فيها.

إن جميع المقالات المنشورة بالدوريات التونسية والمجلات «النبوة» الفكر اللغات «الإذاعة» أو في الصحف اليومية «العمل» «الصباح» اعتنت كلها بالنقد الاجتماعي وبالثقافة والقضايا اللغوية مع الحرص دوما على تعريف الثقافة الشعبية التونسية اقتناعا راسخ لديه بان هناك واجبات علمية لا يمكن أداءها الا في تونس ومن قبل تونسيين .

ملاحظة: عندما كان الطاهر الخميري رئيس قسم التأليف والترجمة والنشر بكتابة الدولة للمعارف اقترح برنامج يتضمن

1 – معجم كبير للهجة التونسية

2 – معاجم خاصة لمؤلفات ابن خلدون وابن أبي دينار وابن أبي الضياف وخير الدين وحسين خوجة وغيرهم من المؤلفين التونسية المتأخرين

3 – قاموس للعادات والتقاليد التونسية به ملحق مصوّر

4 – مجموعة من الأمثال التونسية مرتبة حسب المواضيع

5 – نصوص مفسّرة من الشّعر الملحون

ويختم مقترحات مؤكدا على أنّ : كلّ هذه مواضيع يفسّر بعضها البعض ولا يحسن القيام بها إلا تونسيون وفي توني. وذلك لاتصالها بعادات وتقاليد لا يزال العمل جاريا بها عند مختلف طبقات المجتمع.

II الطاهر الخميري المترجم : جدل الثقافة والبناء العقلي

أن يكون أحدهم مفكرا أو مثقفا أو كاتبا مشهورا في سياق تاريخي معين لأمة ما هذا أمر طبيعي وجهد يمكن أن يأخذ في الحسبان لجيل بأكمله ويمكن لتلك الكتابة أن تؤثر في مسار التاريخ برمته، لكن أن تكون مترجما فهذا أمر أخر ربما يستدعي الدقة في صناعة المعنى وتأويل النص .

إن للطاهر الخميري بصمة واضحة في الثقافة التونسية لا بإنتاجه المتنوع فحسب من جهة التأليف كتابة والترجمة لكبار الأدباء وإنما لما يتميز به من عمق التفكير والتأمل والتقاط اللحظات المناسبة لكل الأحداث والمناسبات والتغييرات الإقليمية والدولية .إن الانخراط في القضايا المتنوعة للمجتمع التونسي لفترة ما قبل الاستقلال وبعده ساهم في بلورة رؤية جديدة لنمط تفكير التونسيين، ونعني بالثقافة التونسية هذا النوع المخصوص من طرائق العيش والعادات والتقاليد وطرق المعاملات ضمن ثقافة شعبية مخصوصة.

ان اشتغال الطاهر الخميري على اللغات الأخرى خصوصا الانكليزية (تعلم العديد من اللغات مثل اليونانية واللاتينية، العربية، الفارسية، فرنسية، ألمانية، انكليزية) من خلال فعل الترجمة والذي يؤكد مرة أخرى أن ليس ثمة هوية أو سردية جاهزة للمفكر.

فكل عملية ترجمة هي تعبير ضمني على محاولة تجربة احتمال آخر للوجود في هذا العالم تجمع بين احتمالين إما الخصوصية (بما يعينه اللفظ من فرادة وأصالة الانتماء رمزا ولغة ودين وعادات) وإما الكونية (الانخراط في عالمية ما سواء كانت ثقافية أو غير ذلك) فلا أحد يغترب خارج حدود لغته إلا لماما وقد تنزلق هذه ألنفس في أنفاس الآخرين بفعل الترجمة لدهر . لكن هناك دوما نوعا خاص من الوجود ورثناه ليقول عنا ما عجزت اللغة عن قوله.

إن محاورة اللغة من داخل اللغة قد دفع الطاهر الخميري إلى ابتداع نوع مخصوص من الكتابة لاسترجاع سردية مهددة من قبل الاستعمار. فالقراءة المتأنية لكتب الطاهر الخميري خصوصا الترجمات (هملت/ عطيل يولوس القيصر) والتي جمعها وقدمها الأستاذ محمد المي وصدرت عن دار سحر للنشر تعتبر مغامرة وتحدي خطير أقدم عليه الكاتب في تلك الفترة من جهتين أولا اختبار الإعمال المسرحية لكبير الأدباء الانكليز شكسبير وما يتمتع به هذا الكاتب من الحبكة الأدبية وتمثل الوقائع والروح القصصية ومن جهة ثانية عملية الترجمة مباشرة من النص الأصلي الي اللغة العربية دون توقف حتي انك كما يقول محمد المي في معرض تقديمه لكتاب يولوس القيصر لقد أحسن تعريب بعضها إلى درجة

انك تحسب ان العربية هي لغتها الأصلية فلا تشعر بغريب لفظ ولا بحوشي كلام»[1].

ويعتبر الطاهر الخميري أول من قام بترجمة هملت إلى العربية دون توقف عند نصوص أخرى بل انه قام كذلك بإدخال تعديلات على النص وإضافة بعض المصطلحات العامية حتى يصفي على النص دفقا جديدا يتلاءم وروح العصر والمجتمع . فلم يكن مفكرا خصما عنيدا متورطا في جدال الانتماء يحمل في أعماقه أنين السابقين وعنف الهوية النمطية بل أن أنفاسه قد انزلقت في أنفاس الآخرين من خلال فعل ومفعول الترجمة. كل ترجمة هي انفتاح على إمكانات أخرى للوجود

ما يمكن أن نلخص إليه أن الطاهر الخميري لم يكن من فئة المثقفين المتعصبين لثقافة بعينها كنوع منفرد مخصوص، فالسياق التاريخي والإحداث والوقائع الاجتماعية قبل الاستعمار وبعده عجلت باستحداث أسلوب جديد يجمع بين التثاقف وبناء الشخصية الوطنية وهذا بين من خلال أخراطه في العمل التحريري لشمال إفريقيا بالرغم عدم انتمائه السياسي والاستماع بالثقافة الوطنية بإشكالها المختلفة.

(1) يولوس القيصر : ص 7

III الطاهر الخميري المثقف : الثقافة والتثاقف : سرديات الهوية

قال هيقل ذات مرة «أن الثقافة هي شكل الفكر وهكذا يعرف الإنسان كيف يتمالك، فلا يتصرف وفق ميولاته ورغباته إنما يستغرق في التأمل»[1] وكتب أو سيغالد سبنغلر «تنشاء ثقافة ما لحظة ما تستيقظ روح نبيلة فتنفصل عن الحالة النفسية البدائية للطفولة الإنسانية الأبدية، انها شكل ينبثق من اللاشكل»[2] إلى أي مدى يستجيب فكر الطاهر الخميري لروح الثقافة والمبادئ المؤسسة للثقافة ؟

إن مفهوم الثقافة قد اثأر جدلا واسعا في الأدبيات والدراسات الاجتماعية والفلسفية والانتروبولوجية من جهة الاشتقاق والتعريف إلى جهة الاستعمال والمعاني التابعه له وطرق التوظيف من جهة الخصوصية (انتماء / هوية / عادات) أو الكونية (الشاركية / العولمة/ التثاقف).

مفهوم الثقافة كغيره من المفاهيم شهد ازدحام لغوي وخلطا دلاليا متقاطعا مع مفهوم الحضارة / التعليم/ الدراسة / العادات/ التراث إلى غير ذلك من المفاهيم الجنيسة. وإن عملية الفهم تقتضي دائما وضعه في سياقه الدلالي والتاريخي

(1) هيقل : العقل في التاريخ ص 87-88
(2) أوسيفالد سبنغلر : انحدار العرب ص 282

حتى يستجيب للمقاصد. كيف وظف الطاهر الخميري هذا المفهوم ؟

كتب الطاهر الخميري ذات مرة عنوانا رشيقا « مكافحة الثقافة « منذ الخمسينات من القرن الماضي 1954 وهو جملة مقالات موزعة بين 54/ 1956 اعتمدت جميعها بموضوع الثقافة ذات بعد نقدي تأسيسي (انظر الصفحة 5-6 من تقديم محمد المي للكتاب) حاول من خلاله الطاهر الخميري إرساء تقنيات جديدة لمفهوم ثقافة عندنا

يقال مفهوم الثقافة وبقطع النظر على انتماءاته الغربية أو الشرقية أو حتى الايديولوجية على معان متعددة يمكن إجمالها على كل شيء مخالف لما هو بالطبيعة فهو المكتسب الإنساني والبناء الفكري والعقدي والسلوك الفردي والاجتماعي بما فيه من تقاليد وأعراف وعادات .

و قد نجد في معرض قراءتنا لكتاب **مكافحة الثقافة** العديد من التعريفات لمفهوم الثقافة في الأدب والانتربولوجيا والفلسفة الخ... أفردها الخميري تحت عنوان لا يعكس المضمون «محاولات» لتقريب جملة التصورات الذهنية القارئ وخصوصا القارئ التونسي كلمة ثقافة كما قلنا بقطع النظر عن الأصول اللغوية أو الدقة الايتمولوجية لها سياقات تاريخية في الغرب كما الشرق. وما يمكن ملاحظته أن القارئ المتعجل لكتاب مكافحة الثقافة يقع في حيرة من جهة أن المضمون وعناوين المقالة لا تترجم المضمون ما عدا « عنوان

مكافحة الثقافة « محاولات ثمن الثقافة « بعض المثقفات أو الأدب والمجتمع . ونجد معنى لثقافة استعراضا مطولا لمفهوم ومعنى الثقافة في العديد من الأدبيات والثقافات.ما يمكن أن نلخص إليه من خلال كتابه «مرآة المجتمع» ومكافحة الثقافة أن الطاهر الخميري أراد أن يرسي ملامح الثقافة الوطنية التونسية منطلقا مما هو فردي من جهه تمثله لمضمون الثقافة التونسية وما أصابها من تحير لذلك سعي إلى تمثل ثقافة وطنية مقارنة بالثقافة الإنسانية والتي تعكس روح العيش المشترك فلا معنى لثقافة لا تغير ملامح المجتمع

خاتمة :

إن الكتابة حول الطاهر الخميري المفكر، المترجم والمثقف تعتبر في حدّ ذاتها مجازفة، قد تتطلب منا الدقة المفهومية تفاديا لسوء الفهم . فان يكون الواحد منا قارئ جيدا لفكر الطاهر الخميري معناه أن يكون مدركا للسياقات التاريخية والاجتماعية والثقافية التي عاشها الرجل قبل الاستغلال وبعده.

ان إحياء روح الطاهر الخميري من خلال الندوات أو الأيام الدراسية هو من جهة اعتراف لهذا الجيل بخدمات الرجل العلمية والثقافية ومن جهة ثانية إحياء للذاكرة الوطنية والثقافية الوطنية برمتها.

الطاهر الخميري

سيرة زيتوني أنثروبولوجي منسي

عبدالجليل بو قرّة

بقدر ما نتوغّل في البحث حول سيرة العالم الطّاهر الخميري بقدر ما تتكثّف الأسئلة وتضغط وتلحّ، ومنها التّعتيم المفروض على منجزه إلى درجة التجاهل والتغييب، رغم كثرة ما كتب ونشر ورغم تعامله مع كلّ وسائل الإعلام والتّواصل سواء منها المكتوب أو المسموع والمرئي، ورغم تنوّع وسائل التّبليغ المعتمدة من المقال الصّحفي إلى البحوث الفكريّة والأكاديمية مرورا بالبرامج الإذاعية والتلفزيونية والأعمال المسرحية...

فمن هو الطاهر الخميري؟ ولماذا هذا التغييب؟

التّجاهل والتغييب والتهميش والتقزيم أنواع، وهو لا يقتصر على منع تداول الاسم ودفن المنجز، وهو أمر لم يعد ممكنا في زمننا هذا زمن سهولة نشر المعلومة وتعدّد المواقع الإلكترونية وتنوّعها وصعوبة حجبها ومراقبتها كما كان عليه الأمر مع الورقي، لذا تمّ ابتكار أساليب أخرى للتهميش مثل حصر منجز المبدعين والعلماء في جزء يسير من مسارهم واقتطاعه

من مشروع متكامل مثلما حصل مع الطّاهر الحدّاد وحصره في ركن الدّفاع عن المرأة وعن حقوقها، وأيضا مع رفيق دربه امحمّد علي الحامّي واقتصار التعريف به بصفته النقابية، في حين كان الاثنان صاحبي مشروع أشمل وأعظم وهو مشروع تأسيس «اشتراكية تونسية».

اختار التلميذ الزيتوني الطاهر الخميري التنقّل إلى المغرب ليتعلّم هناك الأنكليزية ممّا ساعده على الانتقال إلى بريطانيا أين حصل على الباكالوريا، ولم يكن أوّل تونسي يتعلّم في بريطانيا بل سبقه مثلا علي بوشوشة (1856-1917) منذ سنة 1878 إلى لندن، إذ ظلّت عين بريطانيا مفتوحة على تونس تحسّبا لأيّ طارئ في المتوسّط رغم تنازلها عنها في مؤتمر برلين لصالح فرنسا.

رغبة الخميري في مزيد تحصيل العلم كانت وراء تنقّله إلى القاهرة للتسجيل في الجامعة الأمريكية بها، وهناك ربط الصّلة بالوسط الأدبي والثقافي والإعلام المصري في فترة بين الحربين التي شهدت حركية فكرية وفنّية وأدبية هائلة جعلت من القاهرة عاصمة للثقافة العربية آنذاك. وتعرّف الخميري هناك إلى أحمد أمين وحافظ إبراهيم ومحمد حسين هيكل...

لم تتوقّف رحلة التعليم والمعرفة في القاهرة بل واصلها الطاهر الخميري بالتنقّل إلى ألمانيا في فترة غليان عامّة واقتراب العالم من حرب كونية جديدة، وهناك تعلّم الخميري اللغة الألمانية وأعدّ أطروحة دكتورا سنة 1936 حول «مفهوم

العصبية عند ابن خلدون»، والتي يمكن تصنيفها ضمن البحوث الأولى في الدّراسات الخلدونية في القرن العشرين.

مكّنه الحصول على الدكتوراه من التّدريس بجامعة هامبورغ الألمانية أثناء فترة الحكم النازي لألمانيا. كما كان إتقانه للغة الانكليزية من العوامل المساعدة له للتّدريس بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، ثمّ المشاركة في تأسيس معهد جوكير هوبكنس (Joker Hopkins) الأمريكي بواشنطن لدراسة قضايا إفريقيا الشمالية.

استغلّ إقامته في ألمانيا لتعلّم اللغات القديمة كاليونانية واللاتينية والعبرية والفارسية والتركية والسريانية للإطلاع على الحضارات القديمة دون واسطة.

لئن مكّنته معرفته بلغات متعدّدة من الكتابة بالعربية، طبعا، وبالأنكليزية (زعماء الأدب العربي المعاصر) وبالألمانية (مفهوم العصبية عند ابن خلدون والقاموس الألماني العربي)، فإنّ تنوّع معارفه وعمقها مكّنه من اختيار التوجّه نحو تفاصيل ثقافات الشعوب كاللغات المحكية والعادات والتقاليد والأمثال الشعبية... أي أنّه كان من المثقّفين العرب الأوائل الذي اختار الغوص في علم الأنثروبولوجيا في ظرف كان فيه أغلبهم مهووسا بكتابة التاريخ ولا يميّز بين التاريخ، كعلم قائم على التّدقيق في المعلومات والبحث عن الحقيقة بالاستناد إلى لقيات مادية كالآثار والأدوات والعملة والمخطوطات،

وبين الأنثروبولوجيا، كعلم يدرس الإنسان وثقافته وموروثه وطريقة تفكيره ومعاملاته...

أعدّ في مجال الأنثروبولوجيا: كتاب الأمثال العامية التونسية الذي جمع فيه الأمثال في ترتيب أبجدي (ط. 1967) وكتاب مرآة المجتمع، فضلا عن عديد المقالات الصحفية التي ركّز فيها على الثقافة الشعبية بتونس والتّعابير اللغوية... وكان يحلم بموسوعة العادات والتقاليد التونسية ومصادرها، وقاموس اللغة المحكية بتونس مع الكشف عن أصولها.

واجه الخميري خلال مسيرته جملة من التحدّيات، بداية من تحدّي التكوين الزيتوني القاعدي وأحادية اللغة وقد تغلّب على ذلك التحدّي بأن نوّع من تكوينه وذلك بالمراوحة بين الآداب والفكر وأيضا بتعلّم لغات متعدّدة، قديمة و«حيّة»، واستعمالها نطقا وكتابة، ثمّ كان تحدّي وسائل التبليغ بأن تجاوز الوسائل التقليدية كالاقتصار على نشر الكتب والمقالات الصحفية على غرار أغلب مجايليه، إذ كان الطّاهر الخميري من الأصوات البارزة في الإذاعة الوطنية ومن الوجوه المألوفة ضمن برامج التلفزة التونسية في سنوات التأسيس الأولى بشدّ اهتمام المشاهدين عندما كان يقدّم معلومات طريفة عن العادات والتقاليد والألقاب والأمثال الشعبية التونسية تنمّ عن سعة معلوماته وعن جهد بحثي غير خفيّ.

ويبقى السؤال المعلّق عن سيرة الطاهر الخميري وعن منجزه المتنوّع والثّري هو سبب تهميشه في الذّاكرة الثقافية التونسية؟

عاملان يتسبّبان عادة في تهميش المثقّف التونسي وعموم المثقّفين العرب: وهما دون منازع العاملان الدّيني والسّياسي.

لقد كان الطاهر الخميري ضمن مجموعة من المثقّفين لم ينل أعضاؤها نفس الحظوة والمكانة في مؤسّسات دولة الاستقلال، إذ لم تكن للخميري وعبدالعزيز العروي نفس مكانة محمود المسعدي والشاذلي القليبي ومحمد مزالي وصالح المهدي...

وبما أنّ الطّاهر الخميري لم يعرف عنه اهتماما بالمسألة الدّينية أو على الأقل لم تصلنا منشورات معترضة أو مجادلة لعقيدة الفقهاء السّائدة آنذاك فقد يكون الخميري ضحيّة بعض الاختيارات السّياسيّة أو ضحيّة بعض الشبهات وبعض العلاقات السّياسيّة.

عندما نرجع إلى ما توفّر من معطيات حول اهتمامات الخميري السّياسية ونشاطه وعلاقاته لا نجد سوى معلومات عامّة، ومن بينها تواصله مع مكاتب الحزب الحر الدستوري في باريس والقاهرة ونشاطه مع مكتب المغرب العربي في لندن وتعريفه بالقضية الوطنية المغربية في وسائل الإعلام الأنغلوسكسونية، لكن يبدو أن تنقّله بين ألمانيا وأنكلترة والولايات المتحدة الأمريكية في فترة حسّاسة قبيل الحرب العالمية الثانية وأثناءها أو في فترة الحرب الباردة بين المعسكرين الشيوعي بقيادة الاتحاد السوفييتي والليبرالي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وحليفتها بريطانيا، كان

وراء الشكوك التي حامت حول ارتباطات الطاهر الخميري ومدى علاقته بعالم الاستخبارات البريطانية.

مهما يكن من أمر فإنّ الطاهر الخميري يبقى من أهمّ مؤسّسي علم الأنثروبولوجيا بتونس قبل أن تهتمّ بها الجامعة التونسية، بمبادرته بإنجاز أعمال مهمّة ما تزال في حاجة إلى مزيد من الاهتمام والدّراسة والتعمّق كاللغة المحكية والأمثال الشعبية والعادات والتقاليد وألقاب العائلات...

الطّاهر الخميري

التّرجمة للمسرح: إبداع على إبداع

فوزيّة بلحاج المزّي

باحثة في علم اجتماع المسرح

وناقدة مسرحيّة

أن يهتمّ باحث لغويّ كالطّاهر الخميري بالمسرح فإنّ ذلك يطرح مسألة امتدادات البحث اللّغوي والأدبي في المجتمع وفي الحركة الإبداعيّة والثّقافيّة بشكل عامّ. والعكس يبدو ربّما صحيحا ووارداً، إذا اعتبرنا أنّ للخلق الفنّي والابتكار والإبداع صلة بالواقع وبالمياومة في تمظهراتها المختلفة.

الدّكتور الطّاهر الخميري بدأ نشاط الكتابة بالاشتغال على الأمثال التّونسيّة. ولعلّ الأمثال الشّعبيّة كظاهرة إنسانيّة شاملة، تنطلق من هذا الواقع وتشعّباته، وأزماته، وانكساراته، وأمجاده. وهي ظواهر غالبا ما تبتكر أشكالا تعبيريّة كالطّقوس الاجتماعيّة والدّينيّة أيضا فتتفتّح فيها قرائح الحكمة والشّعر لتكوّن العمود الفقري للفعل الإبداعي.

هل المسرح فعل اجتماعيّ؟

وهذا يطرح العلاقة بين القيم الاجتماعيّة المضمّنة والمختزلة في الأمثال والّتي عادة ما تمتدّ في نسيج الإبداع الفنّي في مختلف الثّقافات. من حيث إنّها تكوّن المادّة الأساسيّة للعادات والتّقاليد والمراسم الاجتماعيّة بشكل عام ومن حيث إنّ المسرح غالبا ما يستمدّ طروحاته من الملاحم الاجتماعيّة ومن السّير البطوليّة لشخوص واقعيّة يعيد صياغة تركيبتها وتكوينها وخطابها لتمثّلها بإدراك جديد ووعي تاريخيّ جديد أيضا.

إنّ ما تقوم عليه سوسيولوجيا المسرح منذ بروز طروحاتها المبدئيّة هي العلاقة الجوهريّة بين المسرح والظّواهر الاجتماعيّة التي يمكن القول بأنّها شكّلت الصّيغ الأولى للفعل المسرحي منذ اليونان.

فلا شكّ أنّ المسرح اليوناني -وإن كان يقوم على أسس الميثيولوجيا في مناخاتها الماورائيّة والفلسفة في مناخاتها التّجريديّة - كان بالأساس مهتمّا بالطّقوس الرّوحانيّة التي يتشكّل فيها الفعل المسرحي في ذلك العهد. كما لا شكّ في أنّ المسرح اليوناني اعتمد الملاحم والأمثولات (les paraboles) التي كانت تنسب للآلهة كما لأنصاف الآلهة اللّذين كانوا يتزاوجون ويمارسون حياة «بشريّة» عاديّة حيث يحتكّون بالحكمة الشّعبيّة وبالأمثال الشّعبيّة...

وقد قام جون دوفينيو أب سوسيولوجيا المسرح في كتابه حول «سوسيولوجيا المسرح» أو «الظّلال الجماعيّة» بتصنيف للظّواهر المسرحيّة ورد فيه ما سمّي «بالأشكال البدائيّة «للتّعبيرة المسرحيّة وهي الطّقوس الرّوحانيّة والاجتماعيّة والفنّيّة للمجتمعات البدائيّة.

ولعلّ ذلك يؤكّد ما أطرحه من تساؤل حول اهتمام الدّكتور الطّاهر الخميري بالمسرح وهو الذي تركّزت بحوثه وكتاباته على الظّواهر الاجتماعية من خلال الأمثال الشّعبيّة.

التّجديد والوعي التّاريخي

لقد تلقّى الرّجل تعليمه الأوّل بالمدرسة الخلدونيّة وهي مدرسة تجمع بين التّعليم الحديث الذي قام عليه تأسيس المدرسة في حدّ ذاته، من جهة ومن جهة أخرى بطانة التّقاليد والقيم التي تكوّن عليها مؤسّسو الخلدونيّة وهم كما يعلم الجميع، عدد من قدماء المعهد الصّادقي.

وقد واصل تحصيل العلم في الأدب والحضارة العربيّة وأعدّ رسالة الدّكتوراه في ألمانيا (هامبورغ) وحصّل عدّة لغات إلى جانب العربيّة وهي الفرنسيّة والانجليزيّة والألمانيّة واطّلع على لغات أخرى منها السّريانيّة، والعبريّة، والتّركيّة، وغيرها.

وفي كلّ من المسرحيّتين اللّتين ترجمهما «عطيل» و«هملت» لشكسبير، يذكر في مقدّمتي النّصّين المنشورين في الدّار التّونسيّة للنّشر سنة 1968، أنّه ترجمهما مباشرة من اللّغة

الانجليزيّة وأنّه مع ذلك استأنس بالتّراجم الفرنسّيّة والانجليزيّة إلى جانب تعريب خليل مطران.

وعن جون أوزبورن John Osborne الكاتب الإنجليزي أيضا، عرّب الخميري نصّ «أقفاص وسجون» وأخرجها أيضا علي بن عيّاد وقدّمها في 1971. ويذكر أحد الحاضرين في هذا العرض أنّ العرض لم يكتمل نظرا إلى أنّ علي بن عيّاد لم يكن صاحيا وفقد وعيه قبل انتهاء العرض.

التّرجمة بصيغة الدّراماتورجيا

وقد أخرج المسرحيّتين علي بن عيّاد ويذكر الطّاهر الخميري أنّه رافق إنجاز العملين وواكب حذف بعض الجمل أو المقاطع التي كانت تعوق دون سلاسة الإلقاء حيث يقول في مقدّمة «عطيل»: «وكنت على اتّصال بالمخرج والممثّلين طيلة مدّة التّرجمة، فاخترنا من الأساليب ما كان واضحا وصالحا للتّمثيل واجتنبنا كلّ ما قد يجعل الممثّل يسرد نصّا ولا يمثّل دورا».

وكأنّه يعمل بما عرّبه من مقولة هملت وهو يستقبل الممثّلين «مرحبا أيّها السّادة، مرحبا. يسرّني أن أراكم بخير وعافية. لنبدأ حالاّ، هاتوا ما عندكم، أنشدونا قطعة نتذوّق بها طعم فنّكم، قطعة تحرّك السّواكن وتلهب العواطف..»، ما جعله وهو يواكب عمليّة الإخراج، يتحسّس مواقع الحرج لدى الممثّلين

ويسعى لراحتهم في التّمثيل ولصدقهم في أدائه وتحقيق الأهداف المنشودة منه.

هذا التّلميح في النّصّ الشّكسبيريّ يحيلنا على ما كتبه أبو حيّان التّوحيدي في مؤلّف «الإمتاع والمؤانسة» مخاطبا الدّمى كما جاء ذلك في نصّ حمّادي المزّي: «أوصيكم بأن يكون الحديث على تباعد واللّفظ خفيفا لطيفا والتّصريح غالبا متصدّرا. توخّوا الحقّ والصّدق في إيضاحه وإثباته. احذروا تزيينه بما يشينه ولا تومئوا إلى ما يكون الإفصاح عنه أحلى في السّمع وأعذب في النّفس. لا تعشقوا اللّفظ دون المعنى ولا تهووا المعنى دون اللّفظ».

هي خصوصيّات فنّ الأداء كما جاءت من منظور ثلاثة كتّاب خبروا اللّغة لا كأداة جامدة وكوعاء للمعنى، ولكن تمثّلوها بوصفها هي المعنى وهي المحمل الفكري المتحرّك وفقا للحراك وللتّغيّرات الاجتماعيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة التي تحيط بالفعل المسرحيّ وبالتّالي تؤثّر بشكل ما على الفاعل المسرحي وهو الممثّل.

في مقدّمة «هملت» كما عرّبها، ذكر الخميري أنّه اعتمد على طبعة Edward Hubler الانجليزيّة لما تتضمّنه من شروح وتعليقات وأنّه اعتمد ترجمة. Meinerts الألمانيّة وترجمة M.Castelain الفرنسيّة. هذا إضافة إلى ترجمة جبرا إبراهيم جبرا والتّرجمة المختصرة لخليل مطران.

يبدو لي أنّ هذا الجولان في ثقافات لغويّة متعدّدة لا يمكن أن ينتج عن حرص على دقّة التّرجمة بقدر ما هو تطلّع من الدّكتور الطّاهر الخميري إلى الإيفاء بالبعد الكوني لهاتين المسرحيّتين اللّتين تطرحان كلّ واحدة منهما من زاوية معيّنة ملحمة الإنسان اللّاهث وراء السّلطة والمتعة الحسّيّة في مسار لا يقدّر فيه حسابا للآخر. يستهين بحقوقه وذاتيّته ويمعن في تذليله وإحباطه، بل ويمتطيها مسلكا للوصول إلى مبتغياته.

وربّما يتبادر إلى الذّهن السّؤال أو التّساؤل حول الدّافع الذي دعا الطّاهر الخميري لاختيار مسرحيّتين لشكسبير.

إنّ في اختيار مسرحيّة «هملت» و«عطيل» لشكسبير، ربّما اهتمام بكاتب كان منخرطا في مجتمعه وغير انتقائيّ في علاقاته، يمكن أن نطلق عليه انطلاقا من مصطلحاتنا الحديثة «كاتب القرب» (un écrivain de proximité)اجتماعيّا، إذ كان يعاشر الطّبقات المسحوقة كما جاء في كتاب يان كوت(Shakespeare notre contemporain)، حتّى أنّ مسرحيّات شكسبير كانت في أمريكا، إلى حدود النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر، تعرض في الحانات وفي المراكب العابرة لنهر الميسيسيبي وكانت الجماهير التي تحضر عروضها من أعمار مختلفة حيث لا توجد شروط لدخول العرض ولا مقاييس تحدّد الجمهور المقصود.

علاوة على ذلك، فإنّ مسرح شكسبير يطرح موضوع الازدواجيّة في ملمح المثقّف حيث إنّه يحلم ويخطّط لأحلامه وقناعاته وأفكاره، ولكنّه عديم الفعل وبطيؤه ربّما.

هذه السّرديّة لا تغيب عن كلّ من الحضارات والثّقافات واللّغات التي لجأ الخميري إليها ليستأنس بها في تعريبه لهذين النّصّين الخالدين.

ويتبيّن من ذلك أنّ الرّجل وهو يترجم نصوصا مسرحيّة لا يقتصر على تبليغ المعنى وإلباسه لفظا عربيّا، ولكنّه يستبطن في هذه العمليّة خلفيّات النّصّ الأصلي ويناسق بينها وبين المقترح الجمالي لإخراج ذلك النّصّ.

إنّه يكتب نصّا جديدا في صياغته الدّراماتورجيّة، تتزامن كتابته مع الطّرح الجمالي والرّؤية الإخراجيّة التي يقترحها علي بن عيّاد.

وإنّها عمليّة لا يمكن أن يقودها مترجم عاديّ أو حتّى كاتب نصّ مسرحي في السّتّينيّات التي كانت ما تزال تتململ، بل وتتخبّط في المقاربات المسرحيّة اللّصيقة بالأدب والمناخات الخطابيّة.

بشائر دراماتورجيّة رسم الطّاهر الخميري بوادرها وأسّس لها في تناغم مع مبدع مسرحيّ هو علي بن عيّاد الذي كان يشكّل طرحا جديدا للفعل المسرحي في مقاربة خصوصيّة تخلّصه من الخطابة والسّينوغرافيا الجاهزة والصّالحة لكلّ زمان ولكلّ مكان.

يوم الجمعة 31 جويلية 1964، قدّمت فرقة مدينة تونس على ركح المسرح البلديّ باكورة عروض مسرحيّة «عطيل» إدارة وإخراج علي بن عيّاد وديكور وملابس عبد القادر

فراح وبأداء مجموعة من قامات الممثّلين آنذاك منهم الممثّل المصري جميل راتب ونور الدّين القصباوي وجميل الجودي ومنى نور الدّين ووفاء سالم.

يوم السّبت 7 جوان 1968، شهد المسرح البلدي بتونس عرضا لمسرحيّة «هملت» قدّمته فرقة مدينة تونس على ركح المسرح البلدي ووزّعت فيه الأدوار من قبل المخرج ومدير الفرقة علي بن عيّاد على ممثّلي الفرقة وتكفّل قونتر لودكي بإعداد الدّيكور والملابس.

وللتّدقيق، ما كان يسمّى في ذلك الوقت الدّيكور والملابس هو ما يطلق عليه اليوم السّينوغرافيا.

ولعلّ الطّاهر الخميري وهو يعرّب هذه المسرحيّات، قد استبطن هذا المفهوم للسّينوغرافيا من حيث تحسّسه لمسرحة اللّغة (la théâtralité de la langue ou le langage théâtral) التي يكتب بها.

نحن إذن أمام مفكّر خبر اللّغة من جوانبها العفويّة حيث تناولها في باب الأمثال والتّقاليد، ولكنّه حفر في طبقاتها الفكريّة والفنّيّة والثّقافيّة فكان لنا هذا الأثر الحامل لأنبل صيغ الحوار الثّقافي والحضاري عن طريق التّرجمة.

طاهر الخميري : نزعة الإصلاح الاجتماعي

زهير الزوادي

كتب طاهر الخميري في مقال موسوم «بعض المثقفات»: نحن في فترة انتقال فجائي سريع»[1] وهذا النص المحرر سنة 1954و المنشور ضمن كتاب «مكافحة الثقافة» يعتزل الإشكالية الأساسية التي قارب من خلالها طاهر لخميري كل المسائل التي تطرق إليها في كتاباته ومواقفه وممارساته الثقافية والاجتماعية . وقد عاد الخميري إلى تونس عشية الاستقلال واستقرّ فيها(حتى وفاته) بعد أن قضى في أوروبا (بريطانيا وألمانيا...) كلّ سنوات شبابه (منذ نهاية الحرب العالمية الأولى أو بعدها بقليل) حيث أنهى تعليمه الثانوي وتلقى تكوينه الجامعي قبل أن يشتغل في التدريس. وعاش الخميري فترة وجيزة فيما بين(1929 –1930) في مصر جيث درس في الجامعة الأمريكية في القاهرة وتعرف على كبار مثقفيها مثل إبراهيم المازني وحافظ إبراهيم وأحمد أمين الذي كانت له معه علاقة وطيدة.

وما من شكّ أنّ الحياة في مصر أنعشت في ذهن طاهر الخميري ذات الأفكار والتقييمات التي احتفظ بها كخلاصة

لحياته الشبابية والتعليمية في تونس (تجربة الكتّاب والجامع الأعظم والخلدونية) والتي تبدو من خلال المعاينة والمقارنة متشابهة ومترابطة في مستوى ظروفها وتحدياتها. فقد اعتبر طاهر الخميري أنّ العالم ينقسم حضاريا وثقافيا إلى عالمين شرقي وغربي كما أنه ينقسم اقتصاديا وماديا والى نمطين أحدهما ضعيف ومتخلف وزراعي وثانيهما قوي

ومزدهر وصناعي. وعندما عاد الخميري من رحلته الأوروبية الطويلة قبيل الاستقلال التونسي إلى وطنه الذي كان يتهيأ «لانتقال فجائي وسريع» . تبيّن له أنّ البلاد في حاجة إلى جملة من الإصلاحات والتحسينات والتعديلات في الذهنيات والممارسات والسلوكيات الجماعية والفردية حتّى يمكن توجيه تطورها إلى وجهة التقدم والازدهار والتنوير، معتبرا أنّ ذلك العمل موكول إلى المجموعة الوطنية والأفراد في ذات الحين،وأنّ وسائله الأساسية تبقى الثقافة والأعلام والتربية الجديدة في كلّ مجالات الحياة.

I النزعة الإصلاحية الاجتماعية

تضمنّ كتاب «مرآة المجتمع»[2] الذي جمع فيه طاهر الخميري مقالاته الصادرة في جريدة «الصباح» سنة 1956 والتي خصّصها للقضايا الاجتماعية التي كانت البلاد التونسي تواجهها في أول مراحل عهدها بالاستقلال .

وكانت تلك المقالات مرآة نقدية للمجتمع أي أنّ كاتبها حاول من خلالها الإشارة إلى بعض جوانب أزمة المجتمع التونسي ومواطن ضعفه وانحرافته بهدف الدعوة إلى إصلاحها أو تعديلها،حتى يستقيم الجهد الوطني للانتقال من بلد مستعمر إلى بلد مستقلّ ذي سيادة يصبو إلى تكريس قيم التقدّم الاجتماعي والحضاري التي تستوجب تعبئة كلّ طاقات البلاد ممّا جعله يقول في مقدمة الكتاب في «مرآة المجتمع» هذه لا أكتب بلغة (أنا) و(أنتم) أو بلغة(نحن) و(أنتم) وأنما أكتب بلغة (نحن) فقط(ص11).

ومنذ مقدّمة الكتاب حدّد الخميري منهج كتابته التي اعتمدت النقد للإخلالات الاجتماعية في ذهنيات وسلوكيات التونسيين معتبرا ذلك النقد علامة نجض ووعي عصري مارسه الظاوروبين كمقدمة لعملية إصلاح شؤونهم «سل الذين قضوا فصل الصيف الماضي في شمال فرنسا أو شمال ألمانيا أو أنقلترا وبقية شمال أوروبا،سلهم يخبرونك انهم رأوا هناك حياة أفضل وأجمل،ثمّ ابحث عن السبب تجد أنّ هؤلاء كتبوا كثيرا في انتقاد أنفسهم وانتقاد بعضهم البعض، فتعلموا كيف يضحكون على ما فيهم من ألوان الضعف البشري، وتمكنوا بذلك من التغلّب عليها»(ص12).

فالنقد هو وسيلة لاقتراح الإصلاحات بعد تشخيص مواطن الضعف. والمنوال الإصلاحي هو تجارب الغرب الأوروبي المتقدّم، ذلك هو منهج طاهر الخميري الذي لم

يصرّح به لكنّه مارسه على الدّوام بالرغم أنّه حذر من مطيّات ذلك التمشّي الإصلاحي حتى لا يسقط في الاقتباس الأعمى وغير الواعي أي الاقتباس الذي لا يعمل العقل النقدي حيث كتب منبّها» هذا طبيعي ومعقول لأن الجديد عندكم مقتبس من الغرب وأنتم لاتحسنوا الاقتباس»(ص 15)

ويستوجب حسن الاقتباس وعيا نقديا ينطلق من حقيقة أوضاع الناس وذهنياتهم وممارستهم . لذى كانت مقاربة طاهر الخميري في بلورة نزعته الإصلاحية في شؤون المجتمع منحازة إلى منطق التحليل الملموس المرافق للمعايشة والتشخيص وهو منطق علم اجتماع ورؤية انتروبولجية لا تولي للاعتبارات النظرية أهمية كبرى بجيث أنّه التصق بالواقع ووضع أصبعه على إخلالات وانحرافات متعددة تبدو بسيطة (احترام المواعيد والمواقيت(ص43)، طريقة السير أو المشي في الطريق العام (ص13) ومنطق «البنتوات والمزايا» (ص17)،وتراكم الأوساخ في الطريق العام وداخل المنازل (ص25) و«الماخذة بالخاطر»(ص67) و«حرف الياجور» في العلاقات (ص71)، ومخالطة النساء للمقاهي(ص21) و«المجهودات الضائعة» من دسائس ومكائد وحسد وشماتة وخصومات(ص87).

من خلال هذه السلوكيات اليومية التي ينتقدها طاهر الخميري، ينحت هذا الأخير صورا لمختلف أوجه الإنسان

التونسي الذي يطمح إلى تغيير حاله وتحقيق تقدمّه بعد أن استقلّت بلاده.

ولم يبلور طاهر الخميري مشروعا إصلاحيّا متكاملا بل كان فكره ذا نزعة إصلاحية اجتماعية وثقافية،و هو كان على وعي شديد أنّ نموذج المجتمع المتقدّم الذّي يمكن أن يتحقق في تونس الحرّة انطلاقا من فجر الاستقلال يشترط أن تكون للمرأة فيه دورا جديدا وفعالا .

انطلق الخميري في معالجة مسألة المرأة من جزئية بسيطة تخصّ الحياة اليومية للنساء اللواتي بدأت النظم التقليدية للحياة العامة تسدّ أمامهنّ كلّ إمكانيات العيش، لذى نراه يدافع عن فكرة بعث المقاهي ومطاعم خاصة بالنساء حتّى يتمكنّ من التحرك في الفضاء العام بحريّة تيسر لهن حياتهن اليومية. وقد اعتبر طاهر الخميري «أننّا لا نزال نميل إلى مشاكل المرأة معاملة نظرية عامة.نتحدث عن تحرير المرأة وعن مساواتها بالرجل وعن السفور والحجاب واختلاط الجنسين الخ... (...) فتشغلنا هذه الكليات النظرية البعيدة عن التفكير في الجزئيات التي يمكن الشروع في إصلاحها حالا»(ص22).

لم يتناول الخميري مسألة المرأة من زاوية النظر الدينية والفقهية والاجتماعية (مثل عبد العزيز الثعالبي والطاهر الحداد) أو من زاوية النظر الاجتماعية والثقافية والسياسية (مثل الحبيب بورقيبة) أو غيرهم من المصلحين،بل اختار مقاربة المسألة، وفق نظرته البراغماتية المنحصرة في جزئيات

الحياة اليومية والمباشرة دون الالتفات إلى النظريات والشرائع والعادات والقوانين بل حصر المسألة في الحالات الخّاصة: «إنّها ليست مسألة المرأة عموما ولا مسألة المرأة الشرقية ولا مسألة المرأة المسلمة ولا مسألة المرأة العربية، بل أنها مسألة المرأة التونسية . انهت =ا مسألة أمهاتنا وأخواتنا وخالاتنا وزوجاتنا وبناتنا وبقية عشيرتنا الأقربين...(ص22).

وأن اعتبر طاهر الخميري أن «نموذج الرجال القوامين على النساء قد أصبح نادرا»(ص30) لأسباب مادية فإنّ «الاستقلال الاقتصادي هو أهم مشاكل المرأة التونسية في الوقت الحاضر سواء كانت المرأة سافرة أو محجبة،متعلمة أو جاهلة مساوية للرجل أو غير مساوية له، فهي تريد أن تعيش قبل كلّ شيء»(ص29)، لذلك يقترح الخميري أن تتعلم المرأة (تعليم ابتدائي +حرفة) حتى تتمكن من دخول سوق الشغل وتوفير حدّ أدنى من الاستقلال المادي بدل أن تبق مجرد مستهلكة متجولة في الأسواق (ص83).

إلى جانب مسألة المرأة أبرز طاهر الخميري أهمية مسألة الشباب الذي دعاه إلى الابتعاد عن منطق صراع الأجيال (ص27). وحت يتمكن الشباب من المساهمة في مرحلة «الانتقال الفجائي والسريع» الذي تعرفه البلاد التونسية إبان الاستقلال، اعتبر الخميري أن التعليم والعمل وروح المبادرة تشكل الوسائل الناجعة الواجب تملّكها، فهو يقرّ أن «الشباب غير راض عن الحاضر، غير مطمئن إلى المستقبل، يريد حياة

أفضل ولا يعرف إليها سبيلا. فهو في حاجة إلى التوجيه والتشجيع»[3]

واعتبر الخميري أنّ نجاح الشباب مسألة ثقافية، لذا قدم لهم نصا غريبا في بعض جوانبه وان اعتمد على معطيات موضوعية وتجربة شخصية، حيث طالبهم بالاهتمام بالتعليم جديا وطالبهم :» أقلّوا من العناية بالعلم والصناعة،اهتموا كلّ الاهتمام بالعلوم العملية واقتصدوا في الاهتمام بالوجودية ومذاهب النقد الأدبي...»[4]، مضيفا دروسا من تجارب جيله «...تلك غلطة ارتكبناها ودفعنا ثمنها ولا يجب أن نراكم ترتكبون تلك الغلطة فيطول بقاؤنا في أخر القافلة،العصر عصر علم والثقافة السائدة هي ثقافة علمية»[5]

و لماذا كان تقييم طاهر الخميري نقديا لثقافة العالم الشرقي،فهو يؤكد أن الثقافة العلمية لا تفتقر إلى ما اعتبرته الثقافة الشرقية مميزاتها النبيلة الخاصة بها حيث كتب «ليست الثقافة العلمية شيئا باردا جافا لا لذة فيه ولا نشوة،في الظالة الفولاذية المتقنة الصنع دقة كدقة شعر ابن الرومي،ورقّة كرقّة شعر العباس ابن الأجنف وقوة كقوة أكبر شعراء الحماسة،وفي مقال عن الطاقة الذرية قد نجد ما يدخل الإيمان في قلب غير المؤمن إيمانا...»[6]. ويضيف الخميري في وصف الثقافة العلمية: «ليست الثقافة العلمية الصناعية ثقافة مادية لا روح فيها ولا الهام كما يزعم بعض المتفلسفين قرب آلهة «صماء»

هي أروع جمالا وأعمق روحانية وأصدق إلهاما من ألف قصيدة «عصماء»...»[7]

و لم يكن طاهر الخميري صاحب مشروع إصلاحي متكامل ومبلور فهو كما أشرنا متجذر في نزعة إصلاحية (اجتماعية) تحديثية تنهل من الفلسفة الوضعية والعلموية التي سادت أوساط الثقافة والفكر (غير الراديكالي) في أوروبا خلال القرن التاسع عشر والتي كان غوست كونت أبرز وجوهها، وذلك ما يؤكد تجذره في المنظومة الفكرية التنويرية الليبرالية دون التوغل في القضايا الفلسفية والايديولوجية التي رافقت بروزها وتطورها.

وأشار طاهر الخميري أنّ توفير حلول لجمهور النساء والشباب وكل أصناف الفقراء والمعدمين (وهم أغلبية المجتمع) يكمن في سياسة جديدة تعتمد تحقيق الانتقال من الاقتصاد الزراعي والتقليدي نحو نظام اقتصادي صناعي وعصري حيث أنه اعتبر أن «الأكذوبة الكبرى» التي تعرفه ثقافة البلاد هي اعتبار تونس بلدا زراعيا وأنه وجب عليها أن تبقى كذلك لمدّة زمنية طويلة قبل النجاح في إرساء اقتصاد صناعي (ص33) حيث كتب: «لن أصدّق أننا في نهضة حقيقية إلا إذا رأيت مداخن المعامل ممتدة من بنزرت إلى توزر ومتفرّعة شرقا وغربا»(ص34) مضيفا «وبالاختصار إن بلادنا بحاجة ماسة إلى فبارك ومصانع ولكن قيامها لا يتطلب رؤوس أموال فحسب بل خبراء ومهندسين وعمّال قيّمين وعليه فالأجدر بنا

تكوين فئة كبرى من شبابنا وتوجيههم نحو هذا الميدان بدلا من تعليمهم الشعر والفلسفة...» (ص40)

الحل لمسألة التخلف والفقر والبطالة هو التصنيع، واعتماد التقنيات الحديثة والتكنولوجيا العصرية. وقد حدد الخميري مفهومه للتصنيع بصيغة مدققة إذ كتب «التصنيع الذي أعنيه هو الابتداء بصنع تلك الأشياء التي نستعملها كلّ يوم من رباط الحذاء إلى رباط الرقبة،ومن الجبن إلى الوقيد . هو أن لا نبيع منتوجاتنا في صورة مواد أولية...(ص40) مثل البرتقال والخلفتء، وهو ما يفعله «زنوج أفريقية الاستوائية ؟؟؟ (ص 40) فضلا على أن التصنيع هو الحلّ الحقيقي لمشكلة البطالة : معامل للعمال لا تهدئة وترقيع ومسكنات. عدد السكان في ازدياد وكذلك عدد المتعلمين وفهم المتعلم للصبر والقناعة والتوكل والتسليم يختلف عن فهم الأمّي ...انّك تستطيع حلّ مشكلة نخبة متعلمة محدودة العدد بتعقيد أداة الحكم وتضخيم الإرادة وخلق الوظائف من أجل الموظفين،و لكنك لا تستطيع حلّ مشكلة البطالة لمئات الآلاف إلا بإنشاء مئات المعامل» (ص48).

ولا يجانب رأي الخميري الصواب فيما ذهب إليه من تحذيرات ومقترحات وقد تبنت دولة الاستقلال -نسبيا -وجهة نظر قريبة مما طالبها به وهي نجحت في ذلك نجاحا نسبيا في بعض المجالات .

لم ينخرط طاهر الخميري في الشأن السياسي كما لم تفتح أمامه أبواب المشاركة في الشأن العام والعمل الجامعي بل اكتفى بالمساهمة في المجال الإعلامي والإذاعي والترجمة،لكن ذلك لم يمنعه من تقديم بعض الآراء الاستشرافية المهمّة والتي كانت تخص جوهر دينامكية الانتقال التاريخي السريع الذي أنتجته ظروف استقلال البلاد التونسية (1956)، لكن الخميري كان على وعي شديد أن بعض العوائق قادرة على إجهاض نزعة الإصلاح. الاجتماعي الذي كان يطمح إليه. ورغم ابتعاد الخميري عن الوسط السياسي الميداني فهو امتلك حسّا سياسيا دقيقا قواه التحليل العلمي الاجتماعي للظواهر البارزة في المجتمع الذي عاصره . فقد رصد الخميري عدد من عوائق النجاح في الانتقال التحديثي للمجتمع والثقافة في البلاد التونسية منها

ـ انتشار ثقافة دينية سلبية تعكسها ظاهرة «انفصال في الشخصية يؤيد ذلك أننا نقول «أدي الفرض وأنقب الأرض» (ص94)،ومردّ ذلك ضعف التأطير الديني الإيجابي للمجتمع بسبب بروز نوع من الفاعلين (خاصة صلب أيمّة المساجد والخطباء) الذين يفسدون وعي الناس ويدفعونهم إلى الخطأ وهم «خطباء يعالجون المشاكل السياسية بطريقة تهريجية ساذجة لا ترضي رجال الدين ولا رجال السياسة(...) وخطباء يرتجلون خطبهم ارتجالا ويقتبسون الأيات والأحاديث حسبما اتفق تاركين الكلام يجر بعضه بعضا (...) وخطباء

يتلون تلك الخطب المشجعة للمناسبات وذلك بطريقة يظهر منها أنهم هم أنفسهم لا يفهمون ما يقولون»(ص60).

وإن أقرّ الخميري بسلبية التأطير لبعض رجال الدين للمجتمع فهو لم يغفل على سلبية بعض الظواهر الأخرى المتفشية في المجال السياسي والإداري والتي تضخم الانحرافات والعجز على إصلاح شؤون الناس وإسداء الخدمات التي يحتاجونها حيث كتب ملاحظا : «يظهر فينا ميلا خاصا إلى الشكليّات وغراما صحيحا بالرسميات وحبّا مفرطا للحديث عن الإجراءات «مما جعلنا نعقد البسيط ونوزع المسؤولية ونحمل أنفسنا ما لا طاقة لنا به ولا فائدة لنا فيه...»(ص97) مستخلصا من ذلك أنّ «...مثل الجهاز الإداري المضخم المعقد في بلاد صغيرة كالبلاد التونسية كمثل الطفل الصغير يرتدي ثياب أبيه ويتعمم بعمامته ويتقلد سيفه، منظر مضحك طريف..» (ص98).

كما أشار الخميري إلى عائق سياسي أخر من شأنه أن يربك عملية التحديث والإصلاح في البلاد وهو الذي مثله فصيل اجتماعي جديد وسمه «بالوطنجي» أي مجرّد الإنسان المنتسب إلى الوطن دون خدمة مصالحه. وقد شبه الخميري هذا الفصيل الاجتماعي الجديد بالحجر البشري وبالقوة السلبية القاتلة (ص86) معتبرا أنها «أنانية قد تنحط إلى أدنى دركات اللؤم . لأنّ الرجل الذي يعيش (حده حد نفسه) ولا يقال فيه بعد موته سوى أنه (عاش مقبلا على شأنه) هو رجل قد أخذ

ولم يعط : أخذ كلّ شيئ ولم يعطي شيئا» (ص86) والحال أنّ الوطنية المصبوغة بنزعة إصلاحية مقيدة تستوجب ممارسات أكثر انفتاحا على خدمة الغير والصالح العم حيث : «ينتظر من الموظف المسؤول أن يسعى في إدخال بعض الإصلاح على الإدارة التي يديرها وأن يخاطر في ذلك بارتكاب بعض الأخطاء وينتظر من العالم أن يضيف شيئا جديدا إلى موضوع اختصاصه ولو كان ذلك الشيء بعيدا عن الكمال . وينتظر مثل ذلك من الصانع والتاجر والأديب والفنان، لأنه بذلك تبنى الحياة ويكون التقدم(ص85).

II ملاحظات تقيمية للنزعة الإصلاحية الاجتماعية لدى طاهر الخميري .

1. لم يكن طاهر الخميري صاحب مشروع إصلاحي متكامل ومترابط مثلما كان الحال مع عبد العزيز الثعالبي وطاهر الحداد والحبيب بورقيبة . وهو اختار أن يكون عالما في حدود تخصصه الأكاديمي. اشتغل بالتدريس طول حياته المهنية التي قضاها في الغرب (ألمانيا وانكلترا) وأمتهن الصحافة المكتوبة والداعية بعد غودته إلى تونس ملتزما بالابتعاد ظاهريا على مجال العمل السياسي. لكن عدم انخراط الخميري في الشأن السياسي لم يمنعه من الاهتمام بالشأن العام من زاوية دراسة ذهنيات وممارسات التونسيين ونقدها

بهدف إصلاحها . فقد كان صاحب نزعة إصلاحية في كلّ ما يخصّ الحياة الاجتماعية والثقافية في البلاد.

2. وكانت النزعة الإصلاحية لدى الخميري مستندة إلى ثلاثة عناصر هامة وهي

– أولا : معرفته الدقيقة بظروف حياة الغرب الأوروبي المتقدمة في جميع المجالات والتي فرضت عليه منطق المقارنة بين «الشرق والغرب» مع ميل واضح لهذا الأخير ونجاحاته في مختلف المجالات وأصعدة الحياة العامة والفردية.–

– ثانيا : الوعي بأن البلاد التونسية مرت في منتصف السنوات الخمسين من القرن العشرين بمرحلة «انتقال فجائي وسريع» يستوجب إنجازات إصلاحات هامة في ذهنيات وسلوكيات قوى المجتمع الحيوية حتى تتوجه المرحلة الانتقالية نحو نموذج ناجح من التطور.

– ثالثا : لتبار الإصلاح المنشود حلقة ضرورية لتحقيق التطور والازدهار في البلاد والمجتمع وأنّ مضمون ذلك الإصلاح لا يكون سوى الحديث الشامل وفق النظرة الاجتماعية العلموية والوضعية التي هيمنت على الحياة الثقافية في أوروبا منذ نهاية القرن التاسع عشر.

3. جاءت الدعوة إلى إصلاح وتعديل الذهنيات والممارسات الفردية والجماعية للتونسيين وتحديثها في صيغ صور نقدية تارة ومقترحات عملية تارة أخرى وإشارات مقارنة

مع أفعال الشعوب الأخرى تارة ثالثة، كما أن تلك الدعوة لم تكن متمحورة حول مواضيع عامة وكبرى بل أنها تناولت أحيانا جوانب بسيطة في الحياة اليومية وجزئيات طفيفة منها لكنها تكشف خلفيات خطيرة سلبا وإيجابا لذلك اختار طاهر الخميري أن يكون كل من خطابه النقدي ومقترحاته العملية موجها إلى الرأي العام والى الشريحة القادرة على نشرها وتوسيع دائرة تأثيرها . فقد اختار الخميري الصحافة المكتوبة والإذاعة وسيلة لنشر أفكاره وبثها في مختلف أوساط المجتمع دون حصرها في وسط النخبة أو دوائر السلطة ومؤسساتها. فهو خرج من منطق الدعوة إلى الإصلاح عن طريق الدعوة إلى الإصلاح عن طريق عمل الدولة أو عن طريق نضال المجتمع المدني بل اختار نهج التأثير الأفقي الذي يخصّ كلّ الناس ويحاول تعبئة كلّ الناس من أجل إصلاحات تخصّ كلّ الناس في مستوى السلوك والذهنيات.

4. إن لم ينخرط الخميري في مشروع سياسي محدد يكون خلفية لنزعته الإصلاحية الاجتماعية فهو بلور من خلال مقالاته وكتابه «مكافحة الثقافة» ملامح نزعة إصلاحية في المجال الثقافي تتقاطع في عدة جوانب منها مع مضمون نقده ومقترحاته في مجال سلوكيات وذهنيات قوى المجتمع التونسي على الصعيد الاجتماعي وهو أمر يحتاج دراسة خاصة.

5. لم يبلور الخميري قبل وبعد الاستقلال نظرية حول الاستعمار الفرنسي وتحليل نقدي لتأثيره على المجتمع التونسي، وهو أمر مثير للاستغراب. وان كان انحيازه للموقف الوطني لا تشوبه شائبة جلية . كما أن التبني الجلي لدى الخميري للنموذج الحضاري الغربي فيما يخصّ عوامل تقدمه ونهضته وازدهاره لا يبرز موقفا نقديا من التراث السياسي والثقافي والاستراتيجي السلبي في سياق تعامل الغرب مع بلدان الشرق وباقي المستعمرات التي أخضعوها في مختلف أنحاء العالم.

6. يتبين من هذه الملاحظات التقييمية والنقدية للنزعة الإصلاحية الاجتماعية لدى طاهر الخميري أن النظرة العامة التي تبناها في المجالين الاجتماعي والسياسي وخلفيتهما السياسية والفكرية كانت محددة على أساس رفض كل مقاربة راديكالية تهدف إلى الهدم بدل التعديل والتغيير والتحديث الممنهج والتدريجي.

وان كان طاهر الخميري بعيدا عن المنطق الثوري والجذري فهو لا يقبل من المنطق الإصلاحي الاّ التمشي التدريجي الذي لا يطال فهو لا يقبل من المنطق الإصلاحي الّا التمشي التدريجي الذي لا يطال سوى المسائل الجزئية الملموسة والواقعية والتي من شأنها أن تنتج تأثيرا على المدى المتوسط والبعيد والتي تتوخى نهج تراكم الإصلاحات الجزئية بهدف تحقيق التعديلات والتحسينات والتغييرات الكبرى والدائمة.

وقد حدد طاهر الخميري منهجيته الإصلاحية في المجال الاجتماعي مستلهما من ممارسات وتوجيهات الرسول محمد صلعم كما يلي: «في كلّ هذا عبرة للمصلحين الاجتماعيين الذين يرون أن البناء لا يكون إلاّ بعد الهدم وأن عمليات الترميم والرقيع هي عمليات كثيرة النفقات قليلة الفائدة،في هذا التفكير مغالطة لها باعث يسأل عنه ويشكّ فيه ...يظنّونها جرأة وشجاعة وماهي بجرأة أو شجاعة،اذ أن هي إلّا صبيانية... الصبي يحب الهدم ويفرح بالتحطيم لأن ذلك سهل أو لأنّ الصبي لا يدرك القيم ولا يستطيع التمييز بين الصالح وغير الصالح»(ص56)

الهوامش:

1 : طاهر الخميري : مكافحة الثقافة جمع و تقديم محمد المي دار سحر تونس 3202ص 83

2: طاهر الخميري «مرأة المجتمع جمع و تقديم محمد المي دار سحر تونس 3202ص 201

3:طاهر الخميري : مكافحة الثقافة جمع و تقديم محمد المي دار سحر تونس 3202ص 56

:4 طاهر الخميري : مكافحة الثقافة جمع و تقديم محمد المي دار سحر تونس 3202ص 56

5: طاهر الخميري : مكافحة الثقافة جمع و تقديم محمد المي دار سحر تونس 3202ص 56

6:طاهر الخميري : مكافحة الثقافة جمع و تقديم محمد المي دار سحر تونس 3202ص 66

7: طاهر الخميري : مكافحة الثقافة جمع و تقديم محمد المي دار سحر تونس 3202ص 76

الطّاهر الخميري:
مثقّفا تونسيّا طلائعيّا

د. أشواق عوي
المعهد العالي للعلوم الانسانيّة
جامعة جندوبة

على سبيل التمهيد:

يعتبر الطّاهر الخميري أحد روّاد الثقافة في تونس والمغرب العربيّ على حدّ سواء. فهو مثقّف وطنيّ صميمي متشبّع بالتّراث الثقافيّ التونسي وبزاد معرفيّ قوامه الثقافات العالميّة المتقدّمة. وقد كان لهما الأثر البارز في نحت شخصيته بفضل اطلاعه الواسع على ثقافة الآخر ومحاولة فهمها من جهة، وحذقه لعديد اللغات كالألمانية والانجليزية من جهة أخرى.

كما كانت له نظرة طلائعيّة رائدة ورؤية استشرافيّة كرّسها في معظم إنتاجاته الثقافية من كتب ومقالات وندوات وترجمات، فضلا عن إعادة إحيائه لنمط أدبيّ لم يحظ بالإجماع خاصّة لدى أغلب المثقّفين والجامعيّين الذين كانوا يرفضون كلّ ما هو فلكلوري. وأمام تهميش هذا النّوع من الثّقافة اختار الخميري لنفسه طريقا مُخالفا لمُثقّفي عصره. إذ رسم صورة

المجتمع التّونسيّ بأسلوب سلس نابع منه ومتّجه إليه. وترك لنا بذلك إرثا لغويّا وأنثروبولوجيّا مُتميّزا، سنُحاول دراسة أهمّ خصائصه ونسلّط الضّوء عليه في هذا المقال.

أوّلا: حياته وظروف نشأته:

لعلّه من الجدير بنا ونحن ندرس علما مثل الطاهر الخميري الإشارة إلى تعدّد الأبعاد في شخصيّته، فهو الصحافي والمترجم والأديب والناقد والمخرج الإذاعي والتلفزي والمحقق والانتروبولوجي. ولد الخميري عام 1899[1] في حيّ باب سويقة بالعاصمة وتوفي سنة1973[2]، شبّ مثل أقرانه على قراءة القرآن في الكتّاب وتحديدا في كُتّاب سيدي البناني، ثم التحق بعد المرحلة الابتدائية بجامع الزيتونة حيث تميّز في دراسة اللغة والنحو والبلاغة، بالإضافة إلى الفقه والتوحيد، فاطلع على متن ابن عاشر «المرشد المعين على الضروريّ من علوم الدين»، والموسوعة الأجرومة بعنوان: «المقدمة الأجرومية في مبادئ علم العربية».

وتعدّ هذه المتون أحد أبرز المراجع العربية في تعليم اللّغة والنّحو وعلوم الدّين، وبفضل اطلاّع الخميري عليها استطاع أن يكون له زاد لغويّ متميّز. وبالإضافة إلى تكوينه الزيتوني

(1) الطاهر الخميري: **مكافحة الثقافة**، جمع وتقديم محمد المي، الطبعة الأولى، تونس، دار سحر،2022 ص 5

(2) الطاهر الخميري: **يوليوس قيصر**، جمع وتقديم محمد المي، الطبعة الأولى، تونس، دار سحر،2022 ص 5

التقليديّ، التحق هذا المثقف الفذّ بالمدرسة الخلدونية* لينهل من ينابيعها شتّى العلوم والمعارف.

وعلى إثر انتهاء الحرب العالمية الأولى، سافر للمغرب واستقرّ بمدينة طنجة حيث تعلّم اللغة الانجليزية، ومن طنجة هاجر إلى إنجلترا حيث واصل تعليمه بها. وعندما قدم إلى مصر سنة 1929/ 1930 واستقرّ بها، اشتغل أستاذا مدرّسا في الجامعة الأمريكيّة في القاهرة وتعرّف على العديد من المثقفين في ميادين مختلفة على غرار الأدب والشّعر والصّحافة. كما جمعته صداقات كثيرة بأسماء معروفة أمثال المصلح أحمد أمين. وبالرّغم من أنّ إقامته في مصر لم تكن طويلة إلاّ أنّه تمكّن من تأليف كتابه الأوّل باللّغة الانجليزية بعنوان: «زعماء الأدب العربي الحديث»، وقد نشره في أواخر الثّلاثينات من القرن الماضي[1]، على إثر رجوعه لإنجلترا التّي لم يمكث فيها طويلا هاته المرّة، فسرعان ما انتقل إلى ألمانيا حيث قضى بها أطول فترة من حياته، فتعلّم اللغة الألمانية ودرس علم النفس التطبيقي وعلم الاجتماع.

وقد أحرز على شهادة الدكتوراه بامتياز عام 1936 من جامعة هامبورغ التي بقي يدرّس بها لمدّة 17 سنة وتمحور

---

(1) الطاهر الخميري: **دراسات في اللغة والمصطلح**، تحقيق وتقديم حفناوي عمايرية، الطبعة الأولى، تونس، وزارة الثقافة، المركز الوطني للاتصال الثقافي، 1998، ص9

*: المدرسة الخلدونية تأسست في 22 ديسمبر 1896 وكانت تسعى إلى نشر العلوم العصرية كالتاريخ، الجغرافيا، اللغة الفرنسية خاصة بين طلبة جامع الزيتونة الذّي يقوم على تعليم تقليدي بحت.

موضوع أطروحته حول:» مفهوم العصبيّة في فكر ابن خلدون».[1] وتعتبر شخصيّتنا موضوع الدّرس موسوعة لغويّة فإلى جانب إتقانه العديد من اللغات مثل العربية والانجليزية والألمانية كما سبق وأشرنا، استطاع العلامة حذق لغات أخرى كاللاتينية والعبرية والفارسية واليونانية وهو ما خوّل له أن يقوم بالمشاركة في إعداد قاموس ألماني- عربي.

ومن اللاّفت للإنتباه أنّنا لم نسجّل للطاهر الخميري أيّ نشاط سياسيّ يذكر، فقد كان بعيدا كلّ البعد عن هذا المجال واختار أن يكون مثقفا. ولعلّ المتأمل في حياته يلاحظ انه قد تحمّس كثيرا وبشكل ملحوظ ولافت لقضايا شعبه والشّعوب المغاربيّة ككلّ خاصة بعد الحرب العالميّة الثانية (1939-1945)، فالتحق بالمكتب العربي بلندن عام 1946 وأصبح عضوا نشيطا به وقام بمجهود كبير للتّعريف بالقضيّة التّونسية بوسائل الإعلام كالصّحف.

من هنا أصدر المكتب العربي سنة 1947 [2] دوريات اهتمّت بالشّأن العربيّ عموما والمغاربيّ خصوصا وكانت على صلة وثيقة بالقضيّة التونسيّة واللّيبية، هذا بالإضافة إلى إقامة الملتقيات الصحفية والندوات وإلى غير ذلك من الأنشطة التّي من شأنها أن تسهم في كسب تضامن الرأي العام العالمي مع القضية التونسية بصفة خاصة والقضايا العربية بشكل عام. وتواصل هذا النّشاط على نحو حثيث عندما تمكّن الدكتور

(1) المصدر المذكور سابقا، ص 6
(2) المصدر ذاته، ص 9

الخميري من أن يربط الصّلة بمكتب الإعلام التّونسي بباريس الذّي أسّسه جلولي فارس سنة 1947 ومكتب الحزب الحرّ الدستوري التونسي بالقاهرة على حدّ سواء.

وبعد فترة الاستقلال، عاد لوطنه واستطاع أن ينخرط في الحياة الثّقافية بسرعة كبيرة، فقد كان كاتبا فذّا ومخرجا تلفزيّا وإذاعيّا مستقلاّ ومترجما مقتدرا اقتحم مسرح شكسبير العالمي بترجمته لمسرحية «هملت»[1] ومسرحية «عطيل» سنة 1968،[2] ومسرحية يوليوس قيصر[3]، واضعا بذلك بصمته تقريبا في جميع الميادين. وهو أوّل تونسيّ بل مغاربيّ يكتسح مجال التّرجمة آنذاك، فكانت هذه المسرحيات موجّهة بالأساس للعمل الدرامي. وتمّ عرضها من قبل الفرقة البلدية بتونس وهو ما يفسّر أنّ ترجمة هذه المسرحيات كانت أقرب للعاميّة التونسية منها للترجمة العلمية، فقد أخرجت مسرحيّات وليام شكسبير بطابع تونسي طريف لاق استحسان المشاهدين والنقّاد على حدّ سواء.

كما نشر العديد من المقالات في المجلات والصحف مثل الصباح والعمل والفكر والخدام وترك وراءه إرثا ثقافيا غزيرا ومميزا. وأمام تنوّع الأجناس الأدبيّة التي اجترحها الخميري

(1) وليام شكسبير: **هملت**، تعريب الطاهر الخميري، جمع وتقديم محمد المي، الطبعة الأولى، تونس، دار سحر 2022

(2) وليام شكسبير: **عطيل**، تعريب الطاهر الخميري، جمع وتقديم محمد المي، الطبعة الأولى، تونس، دار سحر 2022

(3) وليام شكسبير: **يوليوس قيصر**، تعريب الطاهر الخميري، جمع وتقديم محمد المي، الطبعة الأولى، تونس، دار سحر 2022

فإنّنا سنعتمد في دراستها على التّسلسل الزّمنيّ حتّى يتسنّى لنا تتبّع تطوّر فكره ونظرته للمجتمع.

ثانيا: تنوّع دراساته عن الثّقافة التّونسيّة:

لقد تنوّعت كتابات الخميري وتأرجحت بين اللّغة الإنجليزية واللّغة الألمانيّة، أمّا إنتاجاته باللّغة العربيّة فقد حظيت بالنّصيب الأوفر وكانت غزيرة مسّت مجالات مختلفة: اجتماعيّة وثقافيّة.

1.2. صورة المجتمع التّونسي من خلال نماذج من كتبه:

يعدّ كتاب مرآة المجتمع مرجعا علميّا هامّا وقد صدر سنة 1956[1]، وهو عبارة عن مجموعة من المقالات التّي تتميّز بأسلوب جريء في طرح المواضيع التّي تناولها، فهو محاولة منه لكشف بعض الإخلالات في مجتمعه مع طرح البديل أي الرغبة في الإصلاح وهو ما يسمّى بالنقد الاجتماعي البنّاء.

وقد جاء هذا الكتيّب مع بداية الاستقلال أي في مطلع بناء الدولة، فلعب مثقفنا دور المرشد والموجّه كمساهمة منه لنحت ملامح المواطنة في الشخصية التونسية من خلال رصده لمجموعة من المظاهر الاجتماعية التّي تحتاج إلى ترشيد فـ «هذا الوطن هو بيتنا الأكبر، ونحن متفقون على أنّه في حاجة شديدة إلى التنظيف والتنظيم فيجب أن نتعاون على تنظيفه

(1) الطاهر الخميري: **مرآة المجتمع**، جمع وتقديم محمد المي، الطبعة الأولى، دار سحر 2023

وتنظيمه. وسبيل ذلك أن نترك الاشتغال بالكليات النظرية، ونشتغل بالجزئيات العملية، عوض أن نتحدث عن مشاكل الشّباب مثلا بصورة عامة مبهمة، نبحث في مشكلة خاصّة بطبقة معيّنة من الشباب التونسي ونسعى إلى التعاون على حلّها. وعوض أن نكتفي بتحفيظ بنات المدارس (النظافة من الإيمان)، نحاول إقناعهنّ بأنّ أطرح ما لا يحتاج إليه ممّا يساعد على النظافة ويسهّل عمليّة التّنظيف»[1]، وبذلك تتبيّن لنا مساعي الخميري في إدخال مفاهيم جديدة، يجب على المجتمع أن يتبنّاها إذا ما أراد اللّحاق بركب المجتمعات المتقدّمة.

كما اهتمّ كاتبنا اهتماما خاصا بالثقافة وبمفهومها فقد أصدر سنة 1957 كتيّبا بعنوان «مكافحة الثقافة»[2]، وهو عبارة عن مجموعة من المقالات التّي وقع تجميعها ثمّ نشرها في الصحافة التونسية. وعندما نتأمل في هذا الكتيب سيظهر لنا وبشكل واضح الطاهر الخميري المثقف الطلائعي، فهو من روّاد الثقافة الذين كتبوا في هذا المجال، فالثّقافة تعدّ من المواضيع الشّائكة التّي تتطلّب معرفة ودراسة واسعة بالشّأن الدّاخليّ والخارجيّ أيضا.

---

(1) المصدر المذكور سابقا، ص 11 و12

*: الفلكلور هو مجموعة من الفنون كالقصص، الحكايات، الأساطير، العادات، التقاليد ويتم نقلها من جيل إلى آخر عن طريق الرواية الشفوية

(2) الطاهر الخميري: **مكافحة الثقافة**، جمع وتقديم محمد المي، الطبقة الأولى تونس، دار النشر سحر 2022، ص 5

لذلك سلّط من خلال هذا الكتيب المبسّط الضوء على مفهوم الثّقافة عامّة وثقافة شعبه خاصّة، وتحيلنا عتبة العنوان على توجّهه: **فماهي الثقافة التّي يريد أن يكافحها ويدحضها وينقدها؟** وفي مقابل ذلك هل طرح لنا البديل أو الخيار أو الأنموذج الأمثل للثّقافة التّي يجب أن تكون في بلاده؟ وقد ضمّ هذا الكتيّب ستّة وعشرون مقالا، جاءت متنوّعة مسّت مجالات مختلفة، وكلّها تعكس وبصفة واضحة نظرة الخميري العميقة للثّقافة التّونسيّة بمختلف جوانبها الايجابية والسلبية، فقدّم مجموعة من الحلول المستوحاة من أسباب تطور المجتمعات الغربية خاصة وأنّه قضى فترة طويلة من حياته في المهجر وتعرّف بشكل جيّد على هذه المجتمعات وعلى خصوصياتها وعوامل تقدّمها.

ومن هذا المنطلق، خصّص الخميري مجموعة من المقالات للحديث عن ماهية الثّقافة وحاول من خلالها تقديم تعريف لهذا المصطلح الذّي أصبح متداولا، فانتشر بشكل لافت حيث «كثر استعمال كلمة «ثقافة» وكثر سوء استعمالها حتّى ارتخت واتسعت فصارت تدّل على أشياء كثيرة. ولا تدّل على شيء معيّن وألحَّ عليها بالتحليل والتحديد وعصرت عصرا حتّى جفّت ويبست وكادت تصير من الكلمات أي يمكن أن يقال فيها حرفيا: أنّها قتلت بحثا واستعمالا.»[1]

(1) المصدر المذكور سابقا، ص9

وفي هذا الخصوص، قدّم جملة من التّعاريف في قالب من التساؤلات والاستفسارات التي وضعها حتى يدغدغ بها فكر القارئ، فاستشهد بمجموعة من المفكّرين الغربيّين أمثال Thomas، I.W، B Taylor.E، E Eliot.S.T [1] ومن العالم العربي أمثال طه حسين ومحمود أمين...لافتا انتباهنا إلى أنّ: «الكاتب المصري سلامة موسى هو أوّل من عمّم استعمال كلمة ثقافة في لغة الكتابة وقد عرّفها في أحد كتبه الأخيرة هكذا:» الثقافة هي ما نفكر به والحضارة هي ما نعمل به»[2].

وما يمكن التّأكيد عليه إذن هو التّنوع والاختلاف الكبير بين جلّ المفكرين في تعاريفهم لهذا المصطلح الذّي هو عادة ما يكون وليد بيئته، وهو ما أشار إليه الخميري في مقاله «ثمن الثقافة» وأكّد على أنّ البلاد التونسية بعيدة كلّ البعد في تلك الفترة على أن تصنع شعبا مثقّفا إلاّ بنسب محدودة والسبب يرجع إلى كونها بلد فلاحي محدود الإمكانات فـ»الثقافة بالمقدار الذّي نريده لا يأتي من الفلاحة وإنّما يأتي من الصناعة ويخرج من المعامل ولا يخرج من الأرض»[3]

وهنا نرى أنّها دعوة مباشرة لتغيير النظام الاقتصادي بالبلاد فلا يمكن لبلد مستهلك أن ننتظر منه الكثير. وما يحسب له في هذا المقال أنّه لم يكتف بطرح الإشكال فحسب، بل قدّم الحلّ البديل أيضا حسب رأيه ويتمثل أساسا في السعي إلى تصنيع

(1) المصدر ذاته، ص11-12
(2) المصدر ذاته، ص 10
(3) المصدر المذكور سابقا، ص21

ما يحتاجه السوق المحلي كمرحلة أولى مستعينا بجبن تستور مثالا.[1]

علاوة على ذلك، يقترح الخميري **التّعقّل العادي** أي التخلي والتخلّص من الغرور المفرط، حيث»إنّ المتعقّلين العاديّين يكونون متحرّرين في أنفسهم غير مثقلين بمعتقدات الشيطنة وأولئك هم الأذكياء حقّا.»[2] وهذا ما يحتاجه الشّعب التّونسيّ تحديدا للحاق بركب العالم الغربيّ، فبالعقل المتزّن يستطيع أن يتعرف على الآخر الأجنبي وعلى أسباب تقدمه وتطوره. ولعلّ نكسة العرب ككلّ وتأخرهم يعود إلى ذلك الغرور والتّفاخر بالماضي والتّقوقع فيه ورفض التّعرف على الآخر، فتخلفنا هو نتيجة لتفكيرنا، وهو عندما تحدّث عن هذا الموضوع كان يدرك جيّدا أنّ من أسباب تطور المجتمعات الغربية هو الانفتاح وقبول الآخر والتعلّم منه والتفوق عليه.

ومن الوسائل التي دعا إليها والتّي يجب أن يحذقها التونسي هي **اللّغة**، فهي آليّة من آلّيات التواصل والتعارف، وتترأس اللغة الفرنسية قائمة تلك اللغات، غير أنّ هذه الوسيلة يجب أن تستخدم بشكل جيّد فـ «اضطراب التعبير يدّل على اضطراب التفكير»[3]، وبإتقان اللغة حسب رأيه سيسهل ذكر من نقل ثقافة المجتمع وستتقلص المسافات فهي همزة وصل

(1) المصدر نفسه، ص 22
(2) : المصدر ذاته، ص 24
(3) المصدر ذاته، ص 28

بين الأفراد وثقافاتهم، كما أنّها تيسّر عملية التواصل والتعارف على تجارب الآخرين واكتساب معارفهم وتتبنّى الأفضل منها.

وفي الواقع، لم يقتصر الخميري في هذا الكتيّب على الجانب النّظري لمفهوم الثقافة فحسب، وإنّما قام في بعض من مقالاته التّي أدرجها بدراسة الواقع التونسي، فتحدث عن الجرائد المحليّة وما أصابها من وهن بسبب التقليد وعدم المحاولة في الابتكار والتجديد، وطالب بضرورة تحمّل المسؤولية، فتكوين شخصية تميّزه عن الآخر هي من صميم عمل الصحفي الجادّ، كما عاب عليهم استخدام لغة المبالغة والتضخيم في مقالاتهم.

فضلا عن ذلك، استنكر وشجب فشل المرأة المثقّفة في المجتمع التونسي كربّة بيت، واصفا إياها بالناجحة اجتماعيا والفاشلة أسريا، فهي لا تولي عائلتها الاهتمام المطلوب عادة من سيّدة البيت. فدعا بذلك إلى ضرورة التّوفيق بين متطلّبات الحياة الاجتماعية والحياة الأسريّة في آن واحد، فـ»يوم الزوجة المثقفة ينبغي أن يكون أطول من يوم غير المثقفة لما ينتظر منها من حسن الترتيب والنظام وتوزيع العمل بالحكمة والعدل على ساعات الليل والنهار»[1]

ولاحظ الكاتب تغيّرا في السّلوكيات المجتمعيّة، ففي مقاله «أربعة صور»[2] درس ظاهرة التجسّس وهي من العادات

(1) المصدر ذاته، ص 38
(2) المصدر ذاته: ص 45

السيّئة التي أصبحت متفشيّة بين الجيران وصارت آفة عمياء تهدّد خصوصيّة التونسيّ، فحرمة الجار أصبحت منتهكة وهو أمر لم نعهده قبلا، وهنا نشير إلى تغيّر القيم والعادات الحميدة التّي كانت منتشرة في مجتمعنا قديما ونادى الخميري إلى إعادة أحيائها.

كما أشار أيضا إلى أنّ العلاقات الاجتماعية أصبحت أكثر تشويها «فإنّنا لنتخاصم ونتعادى على ماهو أتفه وأسخف من ذلك خصومة دينية سببها أنّ أحد الخصمين لا يوافق الآخر على طريقته في تكوير العمامة... وخصومة سياسية سببها أنّ أحد الحاضرين ابتسم عندما قال الخطيب: (إنّنا لنحتجّ على ذلك صارم الاحتجاج) فخرج الصوت ضعيفا لا يناسب الكلام... وخصومة حزبية سببها أن أحد صاحبي السجن كان يستأثر على صاحبه ببعض ما يأتيه من الهدايا الصغيرة...»[1]

وقدّم الخميري بعض النصائح والتوجيهات إلى الشباب التونسي لكي يكونوا مواطنين فاعلين في مجتمعهم مخاطبا اياهم: أولا يجب عليهم أن «يقلعوا عن العناية بالفلسفة والأدب ويكثروا من العناية بالعلم والصناعة. اهتموا كلّ الاهتمام بالعلوم العملية واقتصدوا في الاهتمام بالوجودية ومذاهب النقد الأدبي.»[2]

(1) المصدر ذاته، ص 62
(2) : المصدر ذاته، ص 65

فالثّقافة السّائدة اليوم هي ثقافة العلم والتكنولوجيا والعلوم الحديثة وفي: «بعض الأوساط الأوروبية والأمريكية اليوم يقولون فلان دكتور في الفلسفة أو دكتور في الأدب. كما نقول فلان «رجل درويش» أو «رجل نبيه»[1]. فبناء الحضارة تقوم بالأساس على تبني ثقافة الصّناعة من ناحية، وعلى تغيّر نظرتها للزمن من ناحية أخرى، ففي مقاله «غدا إن شاء الله» تحدّث الخميري عن الفرق بين كلمة «غدا» في المجتمعات الغربية فهي التي تعني المستقبل. «فرجال إسبانيا فهم رجال المستقبل يقولون لكلّ شيء «منيانا» أي غدا، فهم قوم لا حاضر لهم وبالتالي لا وجود لهم. فهم بهذا المعنى رجال المستقبل»[2]

بينما تستعمل كلمة «غدا» للتسويف في المجتمعات العربية بشكل عام وفي تونس خاصة، وهي من العادات السيئة، فالتونسي تعود على تأخير كل المسائل مهما كانت أهميّتها فهو غير واع بأهميّة الوقت والأمثلة لا تحصى ولا تعد على تفننه في إضاعته وقد أورد جملة من المواقف التّي تصوّر لنا عدم اكتراثه بالوقت، بالرغم من أن السرعة هي إحدى أبرز مميزات القرن العشرين.

بالإضافة إلى ذلك، حاول من خلال هذا الكتيب الكشف عن جوانب من الحياة الاجتماعية والثقافية، وهي التي تعد مسرحا لمجموعة من التناقضات، حيث سلّط الضوء على عدّة إخلالات اجتماعية كانت متفشيّة بشكل ملحوظ في المجتمع،

(1) المصدر ذاته، ص 66
(2) المصدر ذاته، ص75

كما قام بتقديم بعض الحلول من وجهة نظره التّي يمكن أن تكون من أسباب البناء لمستقبل أفضل وهي محاولة واضحة وجادة من قبله في الإصلاح والإرشاد والتقويم، وبذلك اضطلع مثقفنا بدور ريادي تنويري بامتياز. وجدير بالذكر أنّ كاتبنا كانت له بصمته في تحقيق كتاب ابن أبي ضياف: «أتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان.»

2.2 صورة المجتمع التونسي من خلال كتبات الخميري في الأدب الشّعبي:

لقد تفرّد الخميري وسطع نجمه في الأدب الشعبي أو ما يسمى الفولكلور* وهو وجه من وجوه التراث الشعبي الذّي يستعرض التراث اللامادي للشعوب، فدراسة هذا الموروث الثقافي، يُعدّ رصدا للذّاكرة الجماعيّة والخصائص الثّقافيّة والأخلاقيّة لشعب ما. وهي تُمكّن دارسها من استجلاء خبايا النّاس النفسيّة وعاداتهم التي يسعى المجتمع إلى نشرها طوعا أو قسرا. ويتجلّى هذا الموروث في العديد من الأشكال كالقصّة التي تروي عن طريق الفدّاوي والأغاني والأساطير والشعر والسير والملاحم... فالأدب الشعبي هو ذاكرة الشعوب يتم توارثها جيل بعد جيل.

وقد قام بتأليف كتاب بين سنتي 1961 و1963 بعنوان:» قاموس العادات والتقاليد التونسية»[1]جمع فيه بين النصّ

(1) الطاهر الخميري: **قاموس العادات والتقاليد التونسية**، جمع وتقديم محمد المي، الطبعة الأولى، تونس، دار سحر، 2023، ص 5

المكتوب والصورة، حفاظا عن الموروث الجماعي وتخليدا للذاكرة الشعبية. ويندرج هذا الكتاب ضمن دراسة انتروبولوجية للمجتمع التونسي، فالعادات والتقاليد هي عبارة عن ممارسات للهوية المحليّة التّي يتم رسمها وفق عناصر ثقافية يتبناها الفرد منذ ولادته، وتميّز هذه العادات مجتمعا ما عن الآخر، فالثقافة المجتمعية هي العمود الفقري للهوية الوطنية. وبذلك تصبح القيم والتقاليد أعرافا أي قانون جماعي منقول عبر الأجيال وينبري محل اعتزاز وتفاخر.

ولا يخفى عنا أنّ هذا الإرث الثقافي الذي جمعه في قاموسه بغية الحفاظ على التراث المنقول من عادات وتقاليد هي حلقة وصل بين الفرد ومجتمعه فحسب إميل دوركايم: «إنّ العادات والتقاليد الاجتماعية مفروضة ملزمة. وفرضها والتزام الأفراد بها يشعرهم بالراحة، ويفسر إلزامية الفرد بالقيام بها فالعادات الاجتماعية هي العقل الجمعي.[1]

وعلى هذا الأساس، حاول الخميري في هذا القاموس جمع ما يمكن جمعه من الأمثال التّي يمكن أن تعد «تراث حضاري يتكون من عدة أجيال ويكلف الكثير من التجربة والاختبار، فاطراحها جملة لا بدّ أن يسبب فراغا...(قاموس العادات والتقاليد التونسية) يحاول سدّ بعض ذلك الفراغ.»[2]

---

(1) هالة محمد عبد العال: **المرأة والثقافة**، بحث تحليلي في العوامل المؤثرة في تكوين شخصية المرأة العربية، المكتب العربي للمعارف، القاهرة، 2018 ص 21

(2) الطاهر الخميري: قاموس... المصدر الذّي ذكر سابقا، ص 13

ومن هنا، يكون سبّاقا في الغوص في ثنايا الثقافة العامية التونسية خاصة وأنّها كانت تشهد إقصاء من قبل الجامعيين والمثقفين، على خلاف العالم الغربي الذي تجاوز هذا الصراع اللغوي بين العاميّة والفصحى اذ» إنّ قاموس العادات والتقاليد التونسية لا يقصد منه الاستهلاك المحلي فقط ففي أوروبا وأمريكا معاهد علمية ومراكز للبحث في مختلف العلوم الاجتماعية يهمها هذا العمل ولا تراه معروفا ولا قليل الأهميّة. لأنّ العادات والتقاليد عند الشعوب المختلفة يتمم بعضها البعض ويفسّر بعضها البعض.»[1] وهكذا تتمايز العادات والتقاليد بتمايز مجتمعاتها فهي تعبير واضح على الإرث الحضاري للأمم وهو ما أراد إبرازه بإخراجه لهذا الكتاب الذّي يعكس الموروث الشعبي العريق للمجتمع التونسي.

وتعدّ الأمثال الشعبية من أبرز أشكال الفولكلور، حيث تعكس هذه الأمثال التّي عادة ما تكون محفورة في الذاكرة الجماعية، ثقافة شعبية لها العديد من الرموز والدّلالات، وعادة ما تكون الغاية منها الإرشاد والموعظة كما يمكن أن تتّسم بالحكمة ف:» مضمونها يمتد ليشمل كلّ جوانب الحياة الإنسانية، ويعبر عن خبرة الجماعة في مواجهة المواقف المتعدّدة التّي يواجهها كلّ منهما، وهي من حيث شكلها سهلة الحفظ والانتشار، ومن ثمّ يسهّل الاستشهاد بها عندما يقتضي الأمر أو الموقف ذلك.»[2]

---

(1) المصدر ذاته، ص6

(2) أحمد مرسي: **الأدب الشعبي والعادات والتقاليد الشعبية**، المأثورات

وعلى هذا السّمت الذي دأبه في دراسته لهذا الجنس الأدبي يسعنا ان نفهم أنّ اختيار الخميري لم يكن اعتباطيا فقد أراد من خلاله مؤلفاته في هذا المجال إحياء التراث اللامادي التونسي والمحافظة على الذاكرة الشعبية الجماعية وبالتالي ترسيخ الهوية التونسية، فجاء كتابه «منتخبات من الأمثال العامية التونسية» الذي صدر سنة 1967[1] حيث جمع فيه ما يقارب عن 2500 مثل شعبي تونسي مرفوقا بجملة من الصور، وهنا يجب علينا أن ننوه بأهميّتها في توثيق الأمثال الشعبية، حيث تضطلع بدور إيجابي معرفي في تحويل المثل من لغة منطوقة إلى علامة سيميائية بصرية تعبيرية من شأنها أن تعلق في ذاكرة المتأمل وتسهم في إثراء المعنى المضمر، فالذاكرة البصرية عادة ما تكون طويلة.

وقد بذل الخميري مجهودا يحسب له في هذا العمل المضني، إذ وجد فيه ضالته. فمن خلال تجميع هذه الأمثال سعى إلى بناء نصّ متكامل لإبراز الخصوصية التونسية والهويّة المحليّة «فالمثل يعبّر في شكله الأساسي عن حقيقة مألوفة صيغت في أسلوب مختصر سهل، حتّى يتداوله جمهور واسع من الناس. يعبّر عن حقيقة عامة أو صدق عام.»[2] وبذلك تكون الذاكرة أو الفاكرة الشعبية محفوظة، فهي بمثابة ثروة

الشعبية، 1986، ص 74

(1) الطاهر الخميري: دراسات، المصدر نفسه، ص 10

(2) الكسندر كراب: **علم الفلكلور**: ترجمة رشدي صالح، القاهرة 1967، ص 242

وطنية يجب أن نحافظ عليها من خلال تحويلها من أقوال شفوية إلى مأثورات مكتوبة.

وقد سبق وأن أشرنا إلى أنّه أولى عناية خاصة بالأدب الشعبي الذي يعدّ مرآة عاكسة للواقع التونسي بمختلف طبقاته.

ثالثا- من المركز إلى الهامش: اللّهجة العامية التّونسية من خلال دراسات الخميري:

كان الطاهر الخميري رائدا في دراسته للغة والمصطلحات خاصّة وأنّه أتقن العديد من اللغات كما سبق وان أشرنا إلى ذلك، فقد كان مولعا بهذا المجال لإيمانه الراسخ بأنّ اللغة شأنها أن تكون رافدا من الروافد المهمة التي تسمح بقبول الآخر والتعرف عليه ولا نعني بذلك الانصهار والذوبان في ثقافته. فكاتبنا وبالرغم من تمكنه وحذقه لعدد لا يستهان به من اللغات، إلا أنه كان نصيرا للغة العربية، لغة وطنه، أما «اللغات الأجنبية فيكفي في نظره إجادة لغة منها لفتح آفاق أرحب أمام متعلمها ولا حاجة لمعرفة العديد من اللغات الأجنبية إذ أنّها لا تفيد إلا لمن أراد أن يحترف مهنته»[1].

ويعتبر مثال المثقف الضليع والمتمرس والمتملك للغة العربية، إذ كانت له جملة من المؤاخذات في استعمالها ودونها في عدد من مقالاته مثال مقال بعنوان «أسترها يا بني» كشف من خلاله أن كثرة استعمال اللغة العربية الفصحى» ... يميتها ولا يحييها لأنّه من الأسباب التي تجعل الناس ينامون

(1) الطاهر الخميري: دراسات...، المصدر الذّي ذكر سابقا، ص 11

أثناء الدروس والمحاضرات ويقفلون الراديو بكثرة ولا يتمون قراءة الأبحاث في الجرائد والمجلات.»[1]

كما أراد أن يجد خيطا ناظما بين ما هو مكتوب وماهو بين متداول أي بين الفصحى والعامية ويعزى السبب إلى نشوب صراع حادّ آنذاك بين أنصار اللّغة العربيّة الفصحى وأنصار العاميّة فكانت الغلبة لأنصار الفصحى إذ استطاع هؤلاء إخماد صوت أديب وروائي كبير مثل البشير خريّف. وقد حاول الطاهر الخميري إيجاد حلّ لمعضلة الفصحى والعاميّة ويتمثّل أساسا في تبسيط العربيّة الفصحى و»تفصيح» اللّهجة العاميّة، وذلك لتقليص الهوة بين لغة الكتابة ولغة التخاطب، وما يكون ذلك إلا بـ»الإكتفاء فيها بصيغة واحدة تكون هي الصيغة المستعملة فعلا في القرآن والحديث أو النصوص العربية المعتمدة وإلا فالصيغة الأقرب إلى المشهور في لغة التخاطب»[2]وبالتالي نستطيع التقريب بين ما هو مكتوب ومسموع، كما تلعب الصحافة والإذاعة حسب اعتقاده دور مهم في تطوير اللغة والتقريب بين لغة الحديث ولغة الكتابة.

علاوة على ذلك، يمكننا الإشادة بدور الأدب الشعبي كجنس أدبي جمع بين ثقافتين مختلفتين: ثقافة النخبة وثقافة العامة، باعتباره مقوم من مقومات الهوية الوطنية، فدفاع الخميري عن «الفلكور» كما سبق وأن رأينا وإضفاء الطابع العلمي عليه بتجميعه في كتب وقواميس ما هو إلا اعتراف

(1) الطاهر الخميري: مكافحة ..، المصدر الذي ذكر سابقا، ص 36
(2) الطاهر الخميري: دراسات، المصدر ذاته، ص 12

بقيمة هذا الموروث والتصالح معه، وإبراز خصوصيته خاصة وأنّه وإلى سنوات ظل يعاني الإقصاء من قبل عدد لا بأس به من المثقفين. أمّا الخميري المثقف المخضرم فقد وجد ما يبحث عنه من خلال «علمنته» فيصبح علما يبني عن طريق مقومات خاصة به ويدون بطريقه يصبح محفوظا في الذاكرة الجمعية.

ونجد أنّه في بعض كتاباته راوح بين اللغة العربية الفصحى واللغة العامية كـ: وسألت موظفا عن بعض أوراقي فقال: «تفقدني غدوة» ثم نظرت فرأيت أوراقي أمامه»، أو قوله «نحن قوم نعرف ان الشيء اذا كثر(يمصاط)».

وقد قام بدراسة اللهجة التونسية وقارنها بنظيراتها في بعض البلدان الأخرى وهو ما سماه «المعرب والدخيل» والمعرّب هو مالا نجد له أصل في اللغة العربية ومع ذلك يصبح عربيا فـ» العرب المستعربة»: قوم من العجم دخلوا في العرب فتكلموا بلسانهم، وحاكوْ هيئاتهم وليسوا بصرحاء فيهم، فصاروا عربا وليس أصلهم كذلك.»[1] أما الدخيل فهي الكلمات الأجنبية التي دخلت للغة العربية دون تغير، فهي تنطق كما في لغتها الأصلية، وهكذا نستطيع أن نقول أن الفرق بينهما هو معرب وما هو دخيل هو طريقة النطق، فالكلمات المعرّبة تكون لها أوزان عربية أما الدخيلة فتحافظ هذه المصطلحات على أوزانها وتنطق كما هي.

---

(1) رشيد عبد الرحمن العبيدي: **الأزهري في كتابه تهذيب اللغة**، أطروحة دكتوراه، القاهرة 1998.

وفي الحقيقة، شهدت لغة التّخاطب للمواطن التونسيّ تطوّرا بتطوّر الحضارات والثقافات التّي مرّت بهذا القطر، فقد استقبلت تونس شعوبا بألسنة وحضارات وثقافات مختلفة، نتج عنها تواصل واحتكاك وتثاقف، إذ وجد التّونسي نفسه يتكلّم لغتهم بطريقة واعية أو غير واعية حتى وإن لم يتقنها، فأصبحت بعض الكلمات الوافدة متداولة بشكل ملحوظ في الشارع التونسي، ويعتبر هذا «الاقتراض اللغوي» وهو نقل كلمات ومصطلحات من لغتها الأم ودمجها مع اللغة المحلية -ظاهرة عامة نجدها تقريبا في كل اللغات-أمّا أسبابها فهي متعددة ولعلّ أهمها هو التباهي بهذه الألفاظ غير المألوفة. فـ«الاقتراض اللغوي هو أحد المؤشرات على الصلات الحضارية التّي قامت بصورة مباشرة أو غير مباشرة بين تونس وغيرها من البلدان وهو ما صرنا نسمّيه بالمثاقفة على مستوى الحياة اليومية»[1].

وعلى هذا الأساس، أولى الخميري أهمية ذات بال لما أسماه «المعرّب والدّخيل» ومستنده في ذلك أنّ في «العاميّة التّونسية عدد كبير من الكلمات الأجنبية، بعضها يستعمل في موضعه وبعضها يستعمل في غير موضعه إذ لم يعرف معناه الأصلي وطرق استعماله في اللغة المأخوذة منها»[2]، فجمع حوالي مائتين وستة كلمة دخيلة على اللسان التونسي وحاول

(1) الطاهر الخميري: دراسات، المصدر نفسه، ص 14
(2) المصدر ذاته، ص 93

شرحها وإيجاد مرادفها باللسان العربي وقد تنوعت هاته الكلمات.

ولعلّ تعسّف اللّغة الفرنسية على تلك الكلمات، هو أمر طبيعي، فقد ظلت البلاد التونسية تحت وطأة الاستعمار الفرنسي لردح من الزمن، وأما تبني كلمات من هذه اللغة أو التحدث بها كليا فهو أمر عادي، خاصة إن لم تطغ لغة على الأخرى، فاللسان التونسي تعوّد عليها، ومن ذلك نورد جملة من المفردات التونسية المشتقة من اللغة الفرنسية نحو «السرسي Sursis :وقف أو تأجيل الحكم» و«سربى،يسربي: كلّ شي بالبرشة، أمّا النظام والتسربيس ما عندهمش، سربى، يسربي من Servir». ومع ذلك نجد حضورا للغة الإسبانية من ذلك كلمة «قربيطة» و«القرباطة ج قرابط من Gorbata بمعنى رباط الرقبة» والإيطالية من قبيل «سبيسرية Speziena صيدلية»، وكلمة «سرد بمعنى بارد» والفارسية مثل»سطل» وأصلها «ستل» واليونانية القديمة[1] كـ«جنس، زنس، هك تكون أعمال الجنوس يجيك يزور يبني دار مقام» ونذكر من التركية[2] على سبيل المثال «اليوغرت Yugurt بمعنى اللبن الرائب».

وقد مسّت هذه الكلمات الدّخيلة تقريبا جلّ المجالات في الحياة اليومية سواء الاقتصادية أو الاجتماعية، وعادة ما كانت تستخدم لمزيد التوضيح والتصويت مع الخفة والسهولة في

(1) المصدر ذاته ص 114
(2) المصدر ذاته ص 148

النطق، وكانت الجرائد منبرا منيرا استخدمه الطاهر الخميري للتعريف بهذه المصطلحات ومنها: العمل والصباح والحاج كلوف وخاصة جريدة «الخدام»... حيث ضمّت ركنا قارا يعنى بالتعريف بأصول وجذور الكلمات الأجنبية المنتشرة على لسان التونسي.

تأسيسا على ما سبق، يمكن أن نجزم بأنّ دراسة الخميري للغة جاءت شاملة، إذ أولى الباحث اهتماما خاصّا بكلّ ماله علاقة بالأدب الشعبي من أمثلة ومصطلحات وتعريب الكلمات الدخيلة و«تونستها»، كما اختار أن يكون أحد روّاد الثقافة التونسية وجهابذتها في هذا المجال. فقد اثبت الطاهر الخميري المثقف لمناصريه **ومعارضيه** على حدّ سواء جدارته بامتياز تاركا بصمة واضحة وجليّة في دراسة اللغة العربية الفصحى، فهو وكما رأينا متمكن وضليع بها، إذ أورد ما يقارب عن مائتين وعشرون كلمة عربية فصحى[1] وردت في جريدة العمل حيث خصص ركنا أسبوعيّا كمساهمة منه في الدفاع عن اللغة العربية. وأراد أن يظهر في هذا الركن جمالية اللغة العربية وغناها من خلال إيجاد تفاسير لها باللغة الفرنسية والانجليزية من جهة ومن جهة أخرى حتى تعم الفائدة في أوساط قراءه.

كما تبدّت موسوعيّته من خلال تنوع مصادره في التّفسير فتراه شاعرا وأدبيا ومحاضرا ومثقفا، ينتقل تارة بين أسلوب ميخائيل نعيمة الواقعي وطورا بين أسلوب الجاحظ الاستطرادي. دون

(1) المصدر ذاته صفحات 152 إلى صفحة 236.

أن نغفل عن التّأثير الكبير لابن رشيق وسهيل ادريس والطبري وغيرهم في تشكيل وصقل أسلوبه اللّغوي في الكتابة.

والقائمة تطول بكلّ سلاسة وتمكّن، إذ حضر المعجم الانجليزي والفرنسي في شرحه للمفردات العربية وهو ما يدل على حذقه للغات الأجنبية. فقد مثّل هذا الركن الذي خصصه الخميري علامة مضيئة لبعث روح جديدة في الكتابة الصّحفيّة وإثراء الحياة الثقافية والأدبية في تلك الفترة بأسلوب علمي دقيق وواضح، مسكونا باللغة العربية ومدافعا شرسا عليها.

الخاتمة

في خاتمة هذا البحث وبعد جولة في ثنايا كتابات الدكتور الطاهر الخميري، يمكن لنا أن نؤكّد على أنّه لا يزال وإلى اليوم أنموذجا للمثقّف الحصيف الذّي تحتاجه تونس والقادر على تعزيز الاتجاه التقدمي للثقافة التونسية.

ويمكننا القول إنّه قد وُفّق إلى حدّ كبير في صياغة مشروع ثقافيّ مُتفرّد، مكّنه من التّجديد الثّقافيّ لا سيّما في مجال اللّسانيّات والأنثروبولوجيا.

والواقع أنّ هذا الإرث الثّقافيّ الذي حاولنا تسليط الضّوء على ثناياه بشكل برقيّ، يمكن أن يُمثّل مُدوّنة يشتغل عليها الباحثون والمؤرّخون بُغية دراسة خصائص الشّعوب الثّقافيّة والأنثروبولوجيّة. وهذه الحقول المعرفيّة على أهمّيتها مازالت في حاجة إلى جهود بحثيّة لمزيد الحفر والتّنقيب.

ويُمكن أن نجزم أنّ التّراث الخميري رغم البحوث التي وصلتنا يحتاج إلى مزيد الاشتغال عليه للكشف عن خصائص الهويّة والشّخصيّة التونسيّة وسماتها.

الفهرس

الدكتور الطاهر الخميري المثقف الأنثروبولوجي..... 3

محمد المي

إسهام الأثروبولوجيا وهواجس التنوير في أعمال الطاهر

الخميري 7

سليمة لوكام

الدكتور الطّاهر الخميري أنتروبولوجيّا..... 23

مراد الضويوي

جدل الثقافة بين الخصوصية والكونية في فكر الدكتور

الطاهر الخميري: في السردية التاريخية للهوية..... 35

رشيد الزواوي

الطاهر الخميري سيرة زيتوني أنثروبولوجي منسي 47

عبدالجليل بوقرّة

الطّاهر الخميريالتّرجمة للمسرح: إبداع على إبداع 53

فوزيّة بلحاج المزّي

طاهر الخميري : نزعة الإصلاح الاجتماعي 61

زهير الذوادي

الطّاهر الخميري:مثقّفا تونسيّا طلائعيّا 79

د. أشواق عوي